الخصائص البلاغية لأسلوب الاستفهام في سورة الزمر

إعداد

الدكتورة/ أحلام رمضان محمد قطب

المدرس بقسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات

ببورسعيد. جامعة الأزهر

AhlamKottp٢١٣٤.el@azhar.edu.eg Email

١٤٤٥هـ = ٢٠٢٤م.

الملخص

انتظم البحث في: مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

المقدمة تناولت فيها أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وخطة البحث، والمنهج المتبع فيه.

التمهيد جاء الحديث فيه عن أمرين: أولاً: مفهوم الاستفهام، وبيان قيمته البلاغية.

ثانيًا: سورة الزمر وبيان فضلها، ومناسبتها لما قبلها، وما بعدها.

المبحث الأول: الخصائص البلاغية لأسلوب الاستفهام في تصوير مظاهر القدرة بالدلائل الحسية، ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: الخصائص البلاغية لأسلوب الاستفهام في تصوير مظاهر القدرة بدلائل النفس البشرية.

المطلب الثاني: الخصائص البلاغية لأسلوب الاستفهام في تصوير مظاهر القدرة بدلائل السماء والأرض.

المبحث الثاني: الخصائص البلاغية لأسلوب الاستفهام في تصوير مظاهر القدرة بالدلائل العقلية، ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: الخصائص البلاغية لأسلوب الاستفهام في مقام ضرب الأمثال.

المطلب الثاني: الخصائص البلاغية لأسلوب الاستفهام في مقام تهديد المشركين، وتثبيت النبي ﷺ وتسليته.

المبحث الثالث: الخصائص البلاغية لأسلوب الاستفهام في مقام المقابلة بين أهل الإيمان والكفر.

الخاتمة وفيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

الكلمات المفتاحية: الاستفهام- الزمر – الخصائص- القرآن- النظم.

Rhetoric characteristics of the question style

Search summary

The research came in an introduction، a preface، and three sections، which stand in conclusion and indexes.

١- Introduction: It talked about the importance of the topic، the reasons for choosing it، the research plan، and the method used in studying it.

٢- The preamble includes: three demands: The first is the concept of questioning and its rhetorical value، the second is sura of Zomar، her pre- and post- date event.

٣- The first subject: Rhetorical characteristics of the question method of representations of ability in evidence، Sensory، involving two requirements:

First requirement: the rhetorical characteristics of the question mode of depicting ability with the human psyche.

The second requirement: the rhetorical characteristics of the method of questioning the manifestation of capability with sky and earth signs.

٤- The second research: Rhetorical characteristics of the question method of representations of ability in evidence، mentality، involving two requirements

First requirement: the rhetorical properties of the question style in the denominator of the proverbs.

The Installation of the Prophet -peace be upon him- and His Entertainment.

a- Rhetorical characteristics of the questioning method as a threat to polytheists

b- Rhetorical features of the questioning process in place of the confirmation and entertainment of the Prophet -peace be upon him-

٥- The third research: The rhetorical characteristics of the question method in place of the interview faith and blasphemy.

٦- The conclusion is the most important findings of the research.

٧- Indexes، catalogues of sources and references، catalogues of subjects.

Keywords: question، Zomar، characteristics، syntax.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله الواحد، الأحد، الفرد، الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين دائما أبدا إلى يوم الدين، أما بعد:

فسورة الزمر سورة تدعو إلى توحيد الله وحده، وتنزيهه عن الشريك واتخاذ الصاحبة والولد، وتؤكد على قدرته وعظمته، من خلال عرض مشاهد الكون، كما ذكرت بعض عقائد المشركين، وجعلت من حوارهم ومناقشتهم أدلة على كذبهم، وافترائهم على الله، كما عقدت مقابلة بين المؤمنين والكافرين، منوهة بأثر القرآن في نفوس المؤمنين الأبرار؛ بما صورته من عرض بديع لأحوال الناس يوم القيامة، فوصفت زمر المشركين، وزمر المتقين الذين رضي عنهم رب العالمين.

وللاستفهام أثر في سورة الزمر، فالمولى ﷻ لا يسأل خلقه عن شيء هو عالم به؛ لأنه سبحانه إنما يسأل عباده؛ لتذكيرهم بأنهم قد بلغوا ذلك، وعلموه علم اليقين، وقد ورد الاستفهام في السورة الكريمة إحدى وعشرِين مرة، جاء معظمها بالهمزة.

وقد ظهر أثر الاستفهام واضحًا جليًا في تصوير كثير من القضايا التي عالجتها السورة الكريمة، والتأكيد على مضامينها، ولفت الأنظار إليها، وتوجيه الأذهان نحوها؛ بما يتسم به من خصائص وسمات، وبما ينفرد به من مزايا وشيات تجعله يتسق مع طبيعة هذه الموضوعات القوية التي عالجتها السورة؛ لذا هداني الله - سبحانه وتعالى -إلى هذا الموضوع الذي جاء بعنوان: «الخصائص البلاغية لأسلوب الاستفهام في سورة الزمر».

وقد دفعني إلى تلك الدراسة ما يلي:

١-تعدد أساليب الاستفهام في سورة الزمر، وتنوع أدواته تنوعا ظاهرا، فقد بلغ عدد مواضعه في السورة واحدًا وعشرين موضعًا، جاء بالهمزة وهل، ومن، وأنَّى .

٢-محاولة رصد أواصر العلاقة، والارتباط بين أساليب الاستفهام وأنواعه في السورة الكريمة، وبيان أوجه الاتفاق والافتراق بينها.

٣-بيان خصائص الاستفهام في سورة الزمر؛ لبيان مدى تعانق الأساليب البلاغية الأخرى معه؛ لتأكيد الحجة مع الإقناع.

وقد انتظمت خطة البحث في: مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وفهارس.

المقدمة تناولت فيها أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وخطة البحث، والمنهج المتبع فيه.

التمهيد جاء الحديث فيه عن أمرين:

أولاً: مفهوم الاستفهام، وبيان قيمته البلاغية.

ثانيًا: سورة الزمر وبيان فضلها، ومناسبتها لما قبلها وما بعدها.

المبحث الأول: الخصائص البلاغية لأسلوب الاستفهام في تصوير مظاهر القدرة بالدلائل الحسية، ويشتمل على مطلبين:

- المطلب الأول: الخصائص البلاغية لأسلوب الاستفهام في تصوير مظاهر القدرة بدلائل النفس البشرية.
- المطلب الثاني: الخصائص البلاغية لأسلوب الاستفهام في تصوير مظاهر القدرة بدلائل السماء والأرض.

المبحث الثاني: الخصائص البلاغية لأسلوب الاستفهام في تصوير مظاهر القدرة بالدلائل العقلية، ويشتمل على مطلبين:

- المطلب الأول: الخصائص البلاغية لأسلوب الاستفهام في مقام ضرب الأمثال.
- المطلب الثاني: الخصائص البلاغية لأسلوب الاستفهام في مقام تهديد

المشركين، وتثبيت النبي ﷺ وتسليته.

- الخصائص البلاغية لأسلوب الاستفهام في مقام تهديد المشركين.
- الخصائص البلاغية لأسلوب الاستفهام في مقام تثبيت النبي ﷺ وتسليته.

المبحث الثالث: الخصائص البلاغية لأسلوب الاستفهام في مقام المقابلة بين أهل الإيمان والكفر.

الخاتمة، وفيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

الفهارس، وفيها فهرس المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

والمنهج المتبع في الدراسة هو المنهج الاستقرائي التحليلي الذي يقوم على حصر أساليب الاستفهام في السورة الكريمة حصرًا كاملاً، وتصنيفها على حسب مباحث البحث ومطالبه، ثم تحليلها تحليلاً بلاغيًا؛ لإبراز سماتها وخصائصها، والكشف عن دقائقها، وأسرارها في مقاماتها من السورة الكريمة، والله أسأل أن يكون من وراء القصد.

التمهيد

أولاً: مفهوم الاستفهام وبيان قيمته البلاغية:

الاستفهام لغة: طلب الفهم، واستفهمه: سأله أن يفهمه، وقد استفهمني الشيء فأفهمته، وفهمته تفهيما.(١)

وهو عند النحويين: طلب خُبْر ما ليس عند المستخبر(٢).

وفي اصطلاح البلاغيين: طلب حصول صورة الشيء في الذهن(٣).

وللاستفهام أدوات كثيرة، وهي نوعان:

الأول: حرفان، وهما الهمزة، وهل.

وتستعمل الهمزة؛ لطلب التصديق، وهو إدراك النسبة أي: تعيينها مثل: أقام محمد؟ والجواب عنها يكون بـ نعم، أو لا، وللتصور وهو إدراك المفرد أي: تعيينه مثل: أقام محمد أم قعد؟ والجواب عنها يكون بتحديد المفرد.

أما (هل) فلا يطلب بها غير التصديق مثل: هل قام محمد؟ والجواب عنها يكون ب نعم، أو لا.

الثاني: أسماء، ولا يطلب بها إلّا التصور، وهي: ما، ومن، وأي، وكم، وكيف، وأين،

---

(١) لسان العرب: لمحمد بن مكرم بن على، جمال الدين بن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (ت: ٧١١هـ) مادة: (فهم)، دار صادر – بيروت الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ.

(٢) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (ت ٣٩٥هـ)، ص ١٣٤، محمد علي بيضون، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ-/ ١٩٩٧م.

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة، لمحمد بن عبد الرحمن بن عمر، جلال الدين القزويني، الشافعي، (ت: ٧٣٩) تحقيق: محمد عبدالمنعم خفاجي، ٣/ ٥٥، دار الجيل، بيروت.

وأنّى، ومتى، وأيان[1].

القيمة البلاغية للاستفهام:

يترك الاستفهام أثرًا في ذوق المتلقي وحسه، وعلى حسب شعوره وميله نحوه يصل للغرض من هذا الاستفهام.

فالمعاني التي يدل عليها الاستفهام تتنوع بحسب الغرض المراد وسياقه، فهو يتميز بالامتداد داخل الجملة، وخارجها؛ مما يجعله متصلا اتصال الفرد بعائلته؛ لذا لا ينفصل عن جملته، فمعانيه ليس لها حد؛ لتلونها تلون الزهور في البساتين.

وقد اتخذت أساليب الاستفهام في النظم القرآني مكانًا عاليًا؛ لتجددها على مر الزمان، واتساعها لتلك النفحات الندية لكلام رب البرية؛ لما لها من أثر كبير في تحريك المشاعر وجذب الانتباه، وعندما تتعدد وتتوالى أساليب الاستفهام في النظم القرآني «تبصر وكأن خفقان الوحي المبارك ما يزال يتنزل غضًا طريًّا؛ إذ تحتفظ أساليب الاستفهام للبيان القرآني بقسطه المأثور من التعبير المعجز عن كلمة الله المنبثة في الكون، وأسراره المضمرة في الطبيعة، وآياته المبهرة في خلق السماوات والأرض». [2]

ويعد الاستفهام من أوسع أساليب العربية تفننا؛ لإثارته مشاعر المتكلم والمخاطب معا، تراها متزاحمة غزيرة، خصبة، عميقة، فالآيات الكونية ومظاهر الطبيعة تظهر لنا على مر الزمان حكمة الله في صنعه وإبداعه في خلقه.

---

(١) أساليب بلاغية، لأحمد مطلوب، ص ١١٩، وكالة المطبوعات – الكويت، الطبعة: الأولى، ١٩٨٠ م، والبلاغة العربية، لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (ت: ١٤٢٥هـ)، ١/٢٥٨ وما بعدها، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م.

(٢) الأداء الجمالي في البناء التركيبي من علم البيان، أ.د/ الوصيف هلال الوصيف، ص٣٧٤، ٣٧٥، مكتبة وهبة، ط ١، ١٤٣٧ه/ ٢٠١٦م.

والاستفهام ميدان رحب ممتع، فهو وسيلة من وسائل الحجاج والإقناع؛ حيث يبعث في النفوس التشوق لإدامة النظر وتكراره مرة بعد أخرى؛ لمعرفة السر البديع؛ لأن جمله مركزة تدعو الذهن للتأمل والتفكر.

ثانيا: سورة الزمر وبيان فضلها، ومناسبتها لما قبلها، وما بعدها:

سورة الزمر مكية إلا الآيات ٥٢، ٥٣، ٥٤، وعدد آياتها خمس وسبعون آية، وسميت بسورة الزمر؛ لورود هذا اللفظ فيها، مع دلالته على المقصد العام من السورة، وهو الدلالة على أنه سبحانه وتعالى صادق الوعد، غالب على كل شيء فلا يعجل؛ لأنه لا يفوته شيء، ويضع الأشياء في أوفق محاله، يعرف ذلك أولو الألباب المميزون بين القشر واللباب، وعلى ذلك دلّت تسميتها الزُمر؛ لأنها إشارة إلى أنه أنزل كلًّا من المحشورين داره المعدة له بعد الإعذار في الإنذار، والحكم بينهم بما استحقته أعمالهم، عدلًا منه سبحانه في أهل النار، وفضلًا على المتقين الأبرار، وقد ذكرت السورة زُمر السعداء الذين هم أهل الجنّة، وبيّنت احتفاء الملائكة بهم، وحُسن استقبالهم لدخول الجِنان، وفي مقابل ذلك ذكرت زُمر الأشقياء الذين هم أهل النّار، ووصفت حالهم بالهوان والصغار، كما أوضحت السورة فرقًا في وصف كيفيّة دخول الكفار إلى النّار، ودخول المؤمنين إلى الجَنّة، كما سميت بالغُرف أيضًا؛ لأنها إشارة إلى حكمه سبحانه في الفريقين أهل الظلل النّارية والغُرف النُّورية، تسمية للشيء بأشرف جزئيه، فالقول فيها كالقول في الزُمر سواء، ويزيد أهل الغرف ختام آيتهم ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ٢٠﴾[الزُمر: ٢٠]، وتسمَّى: التنزيل لمن تأمل آيتها، وحقق عبارتها وإشارتها(١).

ويستحب قراءتها قبل النوم؛ قَالَتْ عَائِشَةُ أم المؤمنين -رضي الله عنها-: «كَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَا يَنَامُ حَتَّى يَقْرَأَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالزُّمَرَ»(٢)

---

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لإبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت: ٨٨٥هـ)، ١٦/ ٤٣٦، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

(٢) سنن الترمذي، لمحمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي (ت: ٢٧٩هـ)،

أما مناسبة السورة لما قبلها، وما بعدها:

فإنه لما عرضت سورة (ص) حال المشركين، وإصرارهم، واستكبارهم، واتخاذهم أندادًا لله سبحانه؛ ناسب ذلك ما افتتحت به سورة الزُمر من الأمر بإخلاص العبادة لله وحده، فقال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾[الزُّمر١ :٣]، كما ختمت سورة (ص) بذكر القرآن: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٨ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾[ص ٨٧ ،٨٨] افتتحت سورة الزُمر بذكره: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[الزُّمَر: ١].[١]

وتلتقي سورة الزُمر مع سورة غافر في الموضوع، فكلتا السورتين تصف مشاهد يوم القيامة، وأحوال المؤمنين والكافرين في يوم العرض والحشر.

كما تناسبت السورتان في الخاتمة والمطلع، فقد ذكر في خاتمة سورة الزمر أحوال فريق السعداء والأشقياء، وافتتحت سورة غافر بأن الله غافر الذنب وقابل التوب؛ لحث الكافر على الإيمان وترك الكفر[٢].

تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف،٥/ ١٨١، بَابُ مَا جَاءَ كَيْفَ كَانَتْ قِرَاءَةُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، رقم الحديث ٢٩٢٠، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر الطبعة: الثانية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

(١) البرهان في تناسب سور القرآن، لأحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي (ت: ٧٠٨هـ)، تحقيق: محمد شعباني، ص ٢٩٠، ٢٩١، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.

(٢) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، لوهبة الزحيلي، ٢٤/ ٦٨، ٦٩، دار الفكر (دمشق - سورية)، دار الفكر المعاصر، (بيروت - لبنان)، الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.

المبحث الأول

الخصائص البلاغية لأسلوب الاستفهام في تصوير

مظاهر القدرة بالدلائل الحسية

الاعتراف والإقرار بأن الله خالق الكون، ومبدعه أمر فطري يُقر به أصحاب العقول السليمة، ولا ينكر ذلك إلا مكابر معاند؛ لأن جميع من في الكون يسبح بحمده، وينطق بتلك الحقيقة كل عاقل، فجميع الأدلة سواء عقلية، أم حسية تؤكد أن خالق هذا الكون إله واحد؛ لأن الدقة في الصنع، وجريان الكون العلوي، والسفلي في تناسق تام لا يتقدم أمر ولا يتأخر على أمر، يدل على أن الله واحد يجب إفراده بالعبادة، فلو تعددت الآلهة؛ لتناقض واضطرب أمر هذا الكون، وحول هذه القضية دار هذا المبحث، واشتمل على مطلبين:

المطلب الأول

الخصائص البلاغية لأسلوب الاستفهام في تصوير مظاهر القدرة بدلائل النفس البشرية.

يذكر المولى ﷻ في هذه الآية الأدلة الكونية التي تدل على أنه الخالق لهذا الكون، وفي هذا دليل قاطع على وجوب تفرده سبحانه بالألوهية، فخلق الإنسان من نفس واحدة وخلق منه زوجه، وذلَّل الكون كله لخدمته، ومَن هذا خلقه لا يشاركه غيره في الألوهية والتوحيد. (١)

ومن خصائص الاستفهام في سياق الاستدلال بأمارات النفس البشرية أنه جاء بأداة

(١) ينظر: الموسوعة القرآنية، خصائص السور، لجعفر شرف الدين، تحقيق: عبد العزيز بن عثمان التويجزي، ص ٢٦٣، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٠هـ.

الاستفهام (أنَّى) في موضع واحد، دخلت على الجملة الفعلية، وذلك في قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾[الزُّمَر:٦] وقد تضمنت(أنَّى) معنى الهمزة، إلا أنها لا تصلح للدخول على الأسماء مثلها.

والاستفهام في قوله تعالى:﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ استفهام إنكاري توبيخي تعجبي، فلم يوجه لهم السؤال؛ لمعرفة أمر يجهله يريد فهمه؛ ليخبره عنه، ولكنه أراد توبيخهم بذلك(1)؛ لانصرافهم عن توحيد الله، وإنكارهم الواقع وتعجبهم منه، وفي الاستفهام مبالغة ليست في توجيه الأفعال إلى نفس الفعل؛ لأن كل موجود لا بد أن يكون وجوده على حال من الأفعال، ولما كان الانصراف حالة استفهم عنها بكلمة: ﴿ فَأَنَّىٰ ﴾ التي بمعنى: (كيف)، والمصروف عنه عبادة الله وتوحيده بدليل قوله تعالى: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

وإيثار الفاءِ دون غيرها من الحروف؛ لترتيب الإنكارِ على ما قبله أي: كيف تُصرفون عن الحق الذي لا محيد عنه - وهو التوحيدُ- إلى الضلال عن السبيل المستبينِ- وهو الإشراكُ- وعبادةُ الأصنام؟ فهؤلاء المشركون الذين عدموا البصر والبصيرة عند سؤالهم عن الوجهة التي سيتجهون إليها عن عبادة الله بعد بيان الأدلة، والبراهين الساطعة القاطعة المؤكدة على عظمة الخالق سبحانه؛ لن يجدوا ردًا مقنعًا؛ مما يدعو إلى التعجب والإنكار، فقد بدت الآيات واضحة جلية، فأنّى تعدلون وتولون أبصاركم تجدون وتتحققون أن الله هو الخالق القادر، فجميع الأدلة والبراهين في كل مكان تؤكد على وجوب إفراده سبحانه بالعبادة، حتى في أنفسكم: (وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)[الذاريات:٢١]، فأي وجهة تتجهون، وقد شملتكم الأدلة من جميع الجهات؟ فالاستفهام بـــ(أَنَّىٰ) تنبيه للسامع إلى وجوب التفكر، فالأدلة ظاهرة في كل

(١) الكتاب، لعمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، الملقب سيبويه (ت ١٨٠هـ)، تحقيق/ عبد السلام محمد هارون، ١/ ٣٤٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

مكان، فقد ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾[الزُّمَر:٥]. (١)

وإيثار صيغةِ المبنيِّ للمجهول: (تُصْرَفُونَ) تبين أن الانصرافَ من الحق إلى الضلال مما لا يصدُر عن العاقل بإرادته، فكأنهم ليسوا أهلاً للتصرف يقادون إلى الكفر غير مستقلين بأمورهم؛ وإنما يصرفهم عنه أمر خارج عن إرادتهم، وفي ذلك إلهاب لأنفسهم؛ ليكفوا عن اتباع أئمة الكفر الذين يقولون لهم: ﴿ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[فُصِّلَت:٢٦] عسى أن ينظروا بأنفسهم في دلائل الوحدانية التي ذكرت لهم.

ولا شك في أن كان للامتداد الصوتي في أداة الاستفهام: (فَأَنَّىٰ) دور في التنبيه، والتأكيد على جميع الخلق؛ للرجوع والعودة؛ للنظر في آيات الله المبثوثة في جنبات النفس الإنسانية، وكأنها تدعو الجميع إلى تكرار النظر والتأمل في هذا الخلق العجيب وعظمة الصانع جلَّت قدرته.

كما أن في عدول النظم القرآني عن المبني للمعلوم إلى المجهول في: (تُصْرَفُونَ)، دليلًا على خِسة هؤلاء المعاندين الذين انقلبوا على أعقابهم، فحادوا عن طريق الحق – عبادة الله وحده – إلى طريق الغواية، والضلال، ولو أنهم تأملوا وتفكروا في أنفسهم؛ لاهتدوا إلى عبادة الله وحده؛ فالاستفهام أفاد التهكم والسخرية والتعجب ممن رأوا آيات الله ولم يعتبروا؛ لكنهم لما تركوا العنان لشياطينهم واتبعوا أئمة الكفر، فكأنهم قد سلبوا عقولهم وإرادتهم في القدرة على الاختيار، أي: فكيف تنصرفون عن عبادته، وتنقلبون عنها إلى عبادة غيره؟(٢) ولو تمهل هؤلاء ودققوا النظر في الآيات الكونية، بل

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت ٩٨٢هـ)، ٧/ ٢٤٤، دار إحياء التراث العربي – بيروت .

(٢) ينظر: روح البيان، لإسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي (ت ١١٢٧هـ) ٤/ ٤٣، دار الفكر – بيروت، وفتح القدير، لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني

في أنفسهم، وعاشوا على الفطرة التي فطر الله الناس عليها؛ لاهتدوا إلى إخلاص العبادة لله رب العالمين.

كما أفاد الفعل: (تُصۡرَفُونَ)التحقير لأئمة الكفر الذين ضلوا وأضلوا؛ فقد اتخذهم أتباعهم أولياء من دون الله، والاستفهام هنا؛ للتنبيه لهم على وجوب توحيد الله الذي جلَّت قدرته، فلا يستحق العبادة غيره، وازدراء أوثانهم التي يعبدونها من دون الله(1).

كما أفاد الاستفهام مع المبني للمجهول الإيجاز؛ فالحرف الواحد يغني عن الكلام الكثير المتناهي(2)، فلما قال: أنى تصرفون؟ أغنى عن قول: كيف تعدلون عن عبادته سبحانه إلى عبادة غيره، وقد خلقكم وأحسن صوركم؟

وقد أكدت صيغة المضي في قوله تعالى:(خَلَقَكُم) في بداية الآية عملها في تأكيد دلالات الاستفهام في ختم الآية وتقويتها، والمعنى: كيف تكفرون به وتشركون معه غيره، وقد خلقكم من نفس واحدة؟ فجميع الخلق من أبٍ واحد، آدم عليه السلام، ثم خلق الله منه زوجه، ثم خلق منهما تلك الذرية التي ما تزال تتناسل وتتكاثر إلى أن تقوم الساعة؛ مما يسترعي إعمال العقل والتدبر في تلك الدلائل والبراهين التي تدل على عظمة الخالق، وبيان الحكمة الإلهية في هذه النفس، وقد أتت الآية؛ لعرض دليل آخر على وحدانيته سبحانه، وأنه المتفرد بالعبادة، بعد الدليل الأول الذي سبق عرضه في قوله تعالى: ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي

(ت: ١٢٥٠هـ)، ٤/ ٥١٧ ، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ.

(١) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (ت: ٨٧٥هـ)، تحقيق: الشيخ/ محمد علي معوض، والشيخ/ عادل أحمد عبد الموجود، ٥/ ٨٠، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨هـ.

(٢) الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت ٣٩٢هـ)١/ ٨٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: الرابعة، د-ت .

لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ﴾[الزُّمَر:٥]، وقد فصِلَت الآية عما قبلها؛ لكمال الانقطاع؛ لاختلاف الجملتين خبرًا وإنشاءً لفظًا ومعنى[١]، فكل مَن خلقهم، وخلق ما قبلهم مستقل، والدليل ما سبقه من خلق العالم العُلوي، مؤكدًا على الاستقلال التام لخلق الأرض ومَن عليها.

ولا شك في أن التعبير بالنكرة (نَّفۡسٍ) دليل قاطع على تعظيم هذا الخلق، والأعجب من ذلك خلق زوجه من ضلعه، كما يفيد الإفراد؛ بقرينة نعتها بلفظ (وَٰحِدَةٍ)[٢]؛ لتأكيد هذه الأفراد، والتعبير بقوله:(مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ) كناية عن موصوف، هو آدم -عليه السلام-، وهذه الكناية تؤكد على كمال القدرة وتمامها، فقد خلق الله آدم عليه السلام من طين أي: بلا أب وأم.[٣] عطف بــ(ثُمَّ)؛ للدلالة على التراخي الرتبي؛ فخلق آدم عليه السلام سابق على زوجه وذريته، فالجميع يعود إلى آدم عليه السلام، حتى حواء خلقت من قصيراه: (خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا)، وإيثار لفظ: (جَعَلَ)؛ للتنبيه على هذا الخلق العجيب، فـ «الجعل: إظهار لما في المخلوق من خصائص، وإبراز ما اشتمل عليه من صفات، وهو تغيير بإيجاد الأثر فيه بغير ذلك، ألا ترى أنك تقول: جعل الطين خزفًا وجعل الساكن متحركًا»[٤]، وإفادته إيجاد شيء من شيء وتكوينه منه، فخلق حواء

---

(١) الإيضاح ، ٣/ ١٠٥، أساليب بلاغية، ص١٩٠.

(٢) ينظر: أنوار التنزيل، ٥/ ٣٧، وإعراب القرآن وبيانه، لمحيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (ت : ١٤٠٣هـ)،٨/ ٣٩١، ٣٩٤، دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية، (دار اليمامة – دمشق – بيروت)، (دار ابن كثير – دمشق – بيروت)، الطبعة: الرابعة، ١٤١٥ هـ.

(٣) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ٥/ ٣٧، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ.

(٤) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري (ت: نحو ٣٩٥هـ)، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، ص ١٣٦، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر، والتفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم يونس الخطيب (ت: بعد ١٣٩٠هـ) ص ١١١٩، دار الفكر العربي – القاهرة.

من ضلعه أعظم وأجلب للتعجب؛ لدلالته على كمال القدرة، ونفي الشركة، كما أن في عطفها بــ(ﱟ) على الجملة الأولى دلالةً على مباينتِها له فضلاً ومزية وتراخيها عنه فيما يرجع إلى زيادةِ كونِها آيةً، فهو من التَّراخي في الحالِ والمنزلةِ [1]، فهي من تلك النفس (ﱠ ﱡ)؛ و(مِن) إما للابتداء، أو للبعضية، فهي من نوعه وجزء منه، خلقها منه؛ ليسكن إليها وتسكن إليه، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الروم: ٢١]، وآثر التعبير بـ (مِنْهَا زَوْجَهَا) تمهيدًا لما بعده من التناسل، وقدّم سبحانه خلق الناس على غيرهم مما خلق؛ للتنبيه على شرفهم وفضلهم؛ لأنهم هم المأمورون بالعبادة والمنادون لأجلها[2] .

ولما كان تنوع الأنعام إلى أنواع مختلفة دليلًا على القدرة، وكانت الأنعام أشد وأقوى من الإنسان عطفها عليهم؛ لبيان مدى إكرامه سبحانه للإنسان بتذليل هذه الأنعام وتسخيرها من أجله، قال تعالى:(وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ) وفي التعبير بالإنزال دون التسخير، أو الخلق، أو التذليل دلالة على الرفعة، وهو: مجاز مرسل علاقته المسببية [3]؛ لأن الأنعام تعيش بالنبات، والنبات يعيش بالمطر، والمطر نازل من

---

(١) ينظر: الكشاف عن حقائق التنزيل، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨هـ)، ص ١١٤، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ، وتفسير أبي السعود إرشاد العقل السليم، ٧/ ٢٤٣، وينظر: الجنى الداني في حروف المعاني، لأبي محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي المصري المالكي(ت: ٧٤٩هـ)، تحقيق: د/ فخر الدين قباوة – أ/ محمد نديم فاضل، ص٤٣٠، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.

(٢) ينظر: الكشاف ص ١١٤، وينظر: البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، ٢/ ١٣٨، ٩/ ١٨٥، دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ.

(٣) الإيضاح ٣/ ٦٨.

السماء، فكأن الله أنزلها [1]، فالله قضى، وقدّر وقسّم؛ لأن الخلق إنما يكون بأمر من السماء، واختيرت صيغة الماضي: (وَأَنزَلَ)؛ لأن الرؤية الباعثة على التأمل والاعتبار لا تتعلق بتلك الأحداث بذاتها، بل بنتائجها، أو آثارها المترتبة عليها[2] (ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ) هي: الإبل والبقر والضأن والمعز؛ لأن كلًّا منها ذكر وأنثى، والزوج: ما كان معه آخر من جنسه، فإذا انفرد، فهو فرد ووتر ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأنعام: ١٤٣، ١٤٤]، وخص هذه الأنعام بالذكر؛ لكثرة نفعها، وعموم مصالحها، ولشرفها، ولاختصاصها بأشياء لا يصلح غيرها فيها، كالأضحية والهدي، والعقيقة، ووجوب الزكاة فيها، واختصاصها بالدية. [3]

ثم ذكر عقب ذكرها الحالة المشتركة بين خلقها وخلق الإنسان، وهي كونهما مخلوقين في بطون أمهاتهم في حالات وأطوار متعددة، قال تعالى:﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾[المؤمنون ١٢ :١٤].

---

(١) ينظر: غرائب التفسير وعجائب التأويل، لمحمود بن حمزة بن نصر، برهان الدين الكرماني، ويعرف بتاج القراء (ت: نحو ٥٠٥هـ)، ٢/ ١٠١٠، دار القبلة للثقافة الإسلامية – جدة، مؤسسة علوم القرآن – بيروت، والمنهاج الواضح للبلاغة، لحامد عونى٣/ ٢٩٤، المكتبة الأزهرية للتراث، الطبعة: د–ت.

(٢) ينظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، د/ حسن طبل، ص ٩٧، د – ط–ت.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت: ١٣٧٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ص ٧١٩، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ–٢٠٠٠م.

وآثر النظم القرآني التعبير بالمضارع: (يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ) [الزُّمَر:٦]؛ لإفادة تجدد الخلق، وتكرره مع استحضار صورة هذا التطور العجيب؛ استحضارًا بالتفصيل والإجمال الحاصل للأذهان على حسب اختلافها في الفهم، فقد جعل المشهد ينبض بالحياة والحركة أمام أنظارنا؛ لكثرة النِّعم التي أنعم بها المولى – عزَّ وجلَّ- على بني الإنسان، مع الدلالة على إحكام الصُنع، والقُدرة الباهرة في الرعاية والحفظ؛ للإقرار بوحدانيته سبحانه.

وهذه الجملة: (يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ) بدلًا من جملة (خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ)، وضمير المخاطبين هنا راجع إلى الناس لا غير، وقوله: (فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ) كناية عن العناية، والرعاية، والحفظ في تلك المرحلة، واستدلالًا بتطور خلق الإنسان على عظيم قدرة الله، وحكمته، ودقائق صنعه، فأصله من طين، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم من عظام مكسوة لحمًا، إلى أن صار عند الولادة طفلًا، وفي أثناء تلك الرحلة العجيبة الصنع هو في حماية وأمان تام لا يلحقه عبث ولا تمسه يد مخلوق، ولا تنظر إليه عين، فهو في ظلمات ثلاث؛ ظلمة بطن الأم، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، وتلك الظلمات لا تُرى بالعين المجردة».(١)

وهذه الجملة وقعت جوابا لسؤال اقتضته الجملة الأولى، والتقدير: أين خلقنا؟ فكان الجواب: (يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ)، وأكد المضارع ومصدره على التَّدرجِ، والتَّجدُّدِ، والتعظيم لهذا الخلق العجيب أي: يخلقكُم فيها خلقًا كائنًا من بعدِ خلقٍ أيَ: خلقًا مدرجًا، حيوانًا سَويًا من بعد عظام مكسوَّةٍ لحمًا، من بعد عظامٍ عارية، من بعد مُضغ مخلَّقةٍ، من بعد مضغ غير مخلَّقةٍ، من بعد علقةٍ، من

(١) ينظر: التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت : ١٣٩٣هـ) ٢٣/ ٣٣٣، ٣٣٤، الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤ هـ.

بعد نُطفةٍ[1] .

والغرض من تقييد الفعل بالمصدر من جنسه في قوله:(يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ)؛ هو التأكيد على مدى العناية الفائقة لخلق الإنسان في تلك الأطوار المتعددة في ظلماتها الثلاث، وتقرير النظم القرآني وتوكيده؛ مما تقتضيه طبيعة المقام، فقد سيق في مقام إظهار القدرة الباهرة لخلق الله؛ لإقناع هؤلاء المشركين، مع حملهم على الإقرار بتوحيد الله، وهذا المقام يستدعي عرض الأدلة والبراهين القاطعة لهؤلاء المعاندين الذين يدَّعون لله شركاء.

كما كان للإطناب بالاعتراض دور في التثبيت لصورة الاستفهام في قوله: (وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ)[الزُّمَر:٦]، فقد أطنب؛ للتأكيد على أن تسخير الأنعام، وتذليلها لمن جعله خليفته في الأرض [2]؛ ليقطع عليهم الحجة بالأدلة والبراهين القاطعة بأنه الواحد، الأحد، الذي يجب إخلاص العبودية له، فهو الذي بيده مقاليد السماوات والأرض، فالله أعطاهم الأدلة واحدًا تلو الآخر؛ ليصل بهم إلى النتيجة القاطعة بأنه الواحد لا إله غيره، فيجب عليهم الإيمان وإخلاص العبودية له سبحانه.

فالإطناب عزز جانب الاستفهام؛ لزيادة توبيخهم، مع التعجيب من أمرهم وإصرارهم على الكفر، مع رؤيتهم آياته سبحانه ماثلة أمام أعينهم، وكذا التأكيد والتنبيه على أن الله أكرم الإنسان، وسخّر له سائر الكائنات على هذه البسيطة، ولو خلا المعنى منه؛ لفَقَد قوته التي يتطلبها السياق؛ فجملة الاعتراض أمدت المعنى بالعديد من المعاني البلاغية، فقد عُدِموا البصر، والسمع، والعقل، فلهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا

---

(١) ينظر: تفسير أبي السعود، ٧/ ٢٤٣.

(٢) الإيضاح، ٣/ ٢١٥.

يسمعون بها، ولهم قلوب لا يفقهون بها(١).

وفي قوله تعالى: (ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ) إشارة إليه تعالى باعتبارِ أفعالِه المذكورةِ وما في اسم الإشارة من مَعْنى البُعد؛ للإيذانِ ببُعد منزلتِه تعالى في العظمةِ والكبرياءِ أي: ذلكم العظيمُ الشأنِ الذي عددت أفعاله وعلا سلطانه، مالككم المستحقُّ للعبادةِ دون سواه.

وقد تعانق مع الاستفهام في الآية - للتأكيد على وحدانية المولى - سبحانه- أساليب القصر، التي تعددت في الآية الكريمة ابتداءً من القصر بتعريف الطرفين: (ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ) والقصر الحقيقي التحقيقي في هذه الجملة يجري على تأويل أحد الموصوفين بالصفة، والآخر بالموصوف؛ بما يتناسب مع السياق والغرض، فالجميع مردهم إلى الله الواحد مالك الملك.

وتثنية بقوله تعالى: (لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ) وهو قصر عن طريق التقديم، فقدم الجار والمجرور؛ لإفادة القصر الحقيقي التحقيقي باعتبار الحقيقة والواقع، فليس لهم ولا لآلهتهم التي يعبدونها شركة في الملك أصلاً أي: الملك لله وحده لا لغيره، فأتى القصر؛ لإبطال ادِّعاء المشركين، وهو اتخاذ الله ولدًا، وجملة: (لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ) بيان لجملة القصر في قوله: (لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ) فلا أحد مما اتخذه هؤلاء الكفار يملك شيئًا (وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا)[الفرقان:٣].

والغرض من ذلك تنبيه هؤلاء الكفار إلى غفلتهم التي طبعت على قلوبهم.

أرأيت كيف استثار الاستفهام عقول هؤلاء المعاندين، ونبههم على خطئهم،

---

(١) ينظر: وسائل التوكيد في القصص النبوي عن بني إسرائيل" دراسة في مقامات الكلام وأسراره" أ.د/ السيد أحمد موسى، ص ١٥٩١، بحث مستل من مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق، المجلد٣، العدد/ ٣٩، ٢٠١٩م.

ووبخهم؟ حيث قدم المولى لهم الشواهد الدالة على كمال قدرته، وأنَّ مرد الجميع إليه سبحانه، ودعاهم إلى التدبر والتأمل؛ للوصول إلى الجواب الشافي، فكيفَ تُصرَفون عن عبادتِه تعالى، مع وفورِ موجباتِها ودواعيها وانتفاءِ الصَّارفِ عنها بالكُلِّيةِ إلى عبادةِ غيرِه من غير داعٍ إليها، مع كثرة الصَّوارفِ عنها؟ عليكم بالنظر في خلق الله العلوي والسفلي، وانظروا إلى أنفسكم التي بين جنبيكم، وإذا كان هؤلاء قد عموا وصموا، فهذا السؤال أتى ليصحح عقيدتهم (١) ؛ لما له من دور في تقرير المعنى وتأكيده، وهو توحيد الله وإفراده بالعبادة، فالاستفهام زاد من حيوية هذه الدلائل وأثار النفوس نحوها؛ للتفكير فيها والوقوف على وجه دلالتها، ومن ثم الإقناع بها والتأثير من خلالها.

---

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود، ٧/ ٢٤٤، وينظر: الأداء الجمالي، أ. د/ الوصيف، ص ٣٧٦.

المطلب الثاني

الخصائص البلاغية لأسلوب الاستفهام في تصوير مظاهر القدرة بدلائل السماء والأرض.

جاء الاستفهام في سياق الاستدلال على وحدانية الله – تعالى- وعظمته وقدرته بدلائل الأرض والسماء في سورة الزمر في ثلاث آيات، وقد جمع القرآن هذه الدلائل ومزج بينها على نحو فريد، حتى إنك ترى الصورة القرآنية كأنها لوحة فنية تجمع كثيرًا من المتناقضات، وتؤلف بينها على نحو من التناسق البديع والتناغم المعجز، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[الزُّمَر: ٢١]

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[الزُّمَر: ٣٨]

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾[الزُّمَر: ٥٢]

والآيات تمثل دليلًا من الأدلة الكونية المشاهدة التي تقوم عليها الحياة؛ مما يستوجب من ذوي الألباب التأمل والتفكر في تلك الآيات المعجزة التي تدل على عظمة الذات الإلهية في هذا الكون؛ إلزامًا لهم بالحجة؛ ليرتدعوا ويعودوا إلى صوابهم.

وحين يتأمل البحث هذه المواضع السابقة، يجد أن أبرز خصائص أسلوب الاستفهام فيها تنوع أدوات الاستفهام، فجاءت الصدارة لهمزة الاستفهام في ثلاثة مواضع ما بين منفي ومثبت، وجاء بـ(هل) مرتين، وجاء الاستفهام بـ(مَنْ) مرة، وهذا

أمر طبعي؛ لتنوع السياقات التي ورد فيها أسلوب الاستفهام في هذه المواضع ما بين تنبيه وتأكيد في الآية الأولى، وما بين احتجاج واستدلال كما في الآيتين الثانية والثالثة.

والناظر في مواضع الاستفهام بالهمزة - هنا- يجد أنها دخلت على النفي في موضعين: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآء - أَوَ لَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ)، والناظر في الاستفهام الأول الذي استهلت به الآية: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً) يجد أن أول خصائصه دخول همزة الاستفهام على حرف النفي(أَلَمْ) وهذا من خصائصها دون غيرها من أدوات الاستفهام، فهي تدخل على الإثبات والنفي، وغيرها من الأدوات لا يدخل إلا على النفي، ودخول الهمزة على النفي – هنا- أفاد التقرير علي وجه الثبوت والتحقيق، فالاستفهام الداخل علي حرف النفي في قوله: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً)؛ لتقرير الرؤية وتحقيقها وتمكينها وتثبيتها، أي: قد رأيت أن الله أنزل من السماء ماء .

كما أن في هذه الصيغة (أَلَمْ) دعوةً وتنبيهًا إلى ما سيأتي بعدها من آيات عظيمة؛ تثبت أن الله هو الواحد، الخالق لهذا الكون الفسيح؛ لما في الاستفهام من إثارة لذهن المخاطب، وتأكيد هذا من دخول هذه الصيغة على فعل الرؤية المضارع خاصة؛ للدلالة على شدة ظهور الأمر ووضوحه؛ لاشتماله على الرؤية البصرية والقلبية معا.

هذا إذا كان الخطاب للنبي ﷺ على ما قيل، أما إذا كان المخاطب كل سامع تتأتى مخاطبته، أو تتأتى منه الرؤية، أفادت المعاني السابقة إلى جانب معاني الإنكار والتوبيخ، والزجر، والتقريع؛ لعدم جريهم على موجب هذه الرؤية من الإقرار لله – تعالى- بالخلق والوحدانية.

وبهذا يظهر أن الهمزة في الآية ناسبت جميع الأدلة المؤكدة على وحدانيته سبحانه وتعالى، فالآية سيقت لإثبات وحدانيته سبحانه، وإخلاصه بالعبادة دون سواه؛ لتفرده بهذا الخلق العظيم.

وإيثار النظم القرآني أداة النفي (لم)؛ لاختصاصها بالدخول على الفعل المضارع، وقلب معناه إلى المضي، فيعُم النفي ويشمل الأزمنة الثلاثة: الماضي، والحاضر، والمستقبل[1]، فالهمزة لم تؤثر على عمل(لم)، وتصدرت الهمزة؛ لعراقتها، ولأحقيتها في الصدارة، فالذي يليها لا يعمل فيها؛ لاتصالها بالمعنى لا المبنى.

وثاني هذه الخصائص تعدي فعل الرؤية إلى الجملة التي سدت مسد مفعوليه: (أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً) بنفسه دون حرف الجر (إلى)؛ للدلالة على شدة وضوح الرؤية وظهورها وتأتيها لكل ناظر؛ لإفادة تحقق الرؤية بالمرئي دون حائل أو صانع، وهذا يعمق من معاني الإنكار والتقرير، مع الزجر والتوبيخ التي أفادها الاستفهام في الآية الكريمة.

وثالث هذه الخصائص: مجيء مفعول الرؤية (أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً) مصدرًا مؤولًا من (أن) وما دخلت عليه الجملة الاسمية؛ للمبالغة في تأكيد هذه الحقيقة التي تضمنتها الجملة وثبوتها ولزومها، ولفظ: (ٱلسَّمَآءِ) في الجملة من المجاز المرسل بعلاقة المجاورة، فإن الماء إنما ينزل من السحاب الذي يجري في السماء.

وأما جملة: (فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ) فإنما آثر النظم القرآني العطف فيها بالفاء؛ لإظهار كمال العناية الفائقة من الله بخلقه، حيث يدخل الماء في مجاري الأرض وعروقها؛ لتتدفق له عند الطلب والحاجة؛ لدلالة هذه الفاء على أن عملية حفظ الماء كانت عقب النزول مباشرة ومن دون مهلة، فليس هناك مدة زمنية بين النزول وإدخال الماء الينابيع قد تؤدي إلى تبخر الماء أو ضياعه، فسرعان ما امتلأت العيون والآبار بالمياه العذبة.

---

(١) مواقع الجملة المنفية في معلقة امرئ القيس وأثرها في تعميق الدلالة البلاغية وإثرائها، أ.د/ السيد أحمد موسى، ص ٥٢٠، بحث مستل من مجلة كلية اللغة العربية بإيتاي البارود العدد ٣٥، ١٤٤٣هـ/ ٢٠٢٢م.

وأكد الماضي على تحقق الوقوع، وزاد عليه حذف الخافض في الأول: (فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ) أي: في (يَنَٰبِيعَ)، وأما ذكره في الثاني: (فِي ٱلْأَرْضِ) فأفاد تمكن الدخول في المجاري والأودية والعيون، فالماء سال في سهولة ويسر، وأفاد التنكير في: (يَنَٰبِيعَ) التكثير؛ بدلالة صيغة منتهى الجموع، فتمتد عروقها؛ فتمتلئ الأنهار والعيون والآبار، وفيها حياة لجميع المخلوقات.

وكان لصيغ المضارعة أثر ظاهر في التأكيد على ما يهدف الاستفهام إليه من بيان أن الله هو المنعم، وهذه الآيات المشاهدة هي الأدلة المبرهنة على ذلك (تر، يخرج، يهيج، يجعله)؛ حيث أفادت التجدد والحدوث، فالنبيﷺ دائم التأمل والتفكر في خلق الله، يعيد النظر مرة بعد مرة، ولو آثر الماضي: أرأيت؟ لَم تفد الرؤية المراد منها.

كما أن إخراج الله للنبات من الأرض وهيجان الزرع متجدد مستمر، يتجدد بتجدد نزول الماء، ونضج الثمار، لا ينقطع ولا يزول، وهذا يلائمه التعبير بالفعل: (يخرج، يهيج)، ولو قيل: خرج، هاج، جعله؛ لم تحصل هذه الإفادة.

وأسهم التراخي الرتبي والزمني بـــ(ثم) (١) في تتابع مراحل نمو النباتات منذ أن كانت بذورًا، ثم تنمو شيئا فشيئا وتكبر، حتى تنضج كمراحل نمو الإنسان؛ وإنما استدل بأطوار الزرع؛ «لأن إخراجَ الزرع من الأرض بعد إقحالها أوقعُ في نفوس الناس؛ لأنه أقرب لأبصارهم وأنفع لعيشهم؛ إذ هو المقصود من المطر(٢) . وعبر بالمصدر (زَرْعًا)؛ للتنويع؛ ليشمل المقتات وغيره، حيث أطلق المسبب، وهو الزرع، وأراد السبب وهو النبات؛ تأكيدًا على عظيم قدرته سبحانه، مع الدلالة على الإيجاز، ووصف الزرع بكونه: (مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ)؛ للدلالة على تنوعها واختلافها في اللون والطعم.

وإيثار أسلوب التعريض بالحقيقة بعد الاستفهام وبعد ما قدَّم الأدلة والبراهين

---

(١) الجنى الداني، ص ٤٢٦.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ٢٣/ ٣٧٧ .

الدالة على وحدانيته سبحانه في قوله: (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)؛ فقد أثبت العقل لمن سلمت فطرته ودقق النظر وتدبر في ملكوت الله وأخلص العبودية لله، وشهد له بالوحدانية، فأصحاب العقول السليمة يرون أن مَن أنزل الماء فأحيا به الأرض هو المستحق للعبادة، وهذا التعريض لنفي العقل عمن لا يتأمل ويتدبر هذه الآيات والأدلة الكونية الدالة على وحدانية الله –تعالى– وتفرده بالألوهية، وإيثار الإشارة للبعيد في قوله: (ذَٰلِكَ)؛ تنزيلًا له منزلة البُعد في المنزلة والمكانة.

أما الموضع الثاني الذي دخلت فيه الهمزة على النفي(أَوَلَمْ)، فهو قوله:(أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)[الزُّمَر:٥٢]، والهمزة في:(أَوَلَمْ) للاستفهام الإنكاري، وقد دخلت على محذوف عطفت عليه (الواو) والتقدير: أقالوها ولم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر؟ فأنكر عليهم بأنهم قد علموا أنه هو الذي يبسط ويقدر، فما لهم يقنطون من رحمته؟ وما لهم لا يعودون بالتوبة من المعاصي التي عوقبوا بالشدّة من أجلها؟ لذا وبخهم لعلمهم بأن الله – تعالى– يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر[1]، وأنكر عدم جريهم على موجب هذا العلم، ووبخهم على ذلك، كي يرتدع هؤلاء المشركون، ويعودوا إلى صوابهم رغبةً في الثواب وخوفًا من العقاب منه سبحانه وتعالى؛ لأن في بسط الرزق وقدره علامات وأدلة ظاهرة وجلية لا ينكرها أحد، فكيف غاب عنهم ذلك؟!.

وتقدمت همزة الاستفهام في قوله: (أولم) تحقيقًا لأصالتها في الوقوع في صدر

(١) ينظر: الكشاف ، ٣/ ٤٨٠، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ٤/ ٥٣٦، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ، و حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، للشيخ العلامة محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الشافعي، إشراف ومراجعة: د/ هاشم محمد علي بن حسين مهدي،٢٥/ ٤٦، دار طوق النجاة، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م .

الجملة؛ لأن الاستفهام «طلب وليس بخفي أن الطلب إنما يكون لما يهمك ويعنيك شأنه، وقد سبق أن كون الشيء مُهمًا جهة مستدعية لتقديمه في الكلام».(١)

وكرر دخول الاستفهام على النفي بـ(لم)؛ لأن «اللفظ المكرر مصدره الثورة وهدفه الإثارة، حُبًا أو بُغضًا، في أي غرض من أغراض الكلام، والتكرار مرتبط بقانون التردد، من قوانين تداعي المعاني، ولذا يُعد وسيلة تربوية من وسائل التقرير؛ لبثه النشاط في جوانب الصورة، مع تنمية التأثير في المستمع».(٢)

وعرَّف المسند إليه وهو لفظ الجلالة: (ٱللَّهَ) بالعلمية؛ «لأن المقام مقام رد على الملحدين وإيضاح التوحيد لهم»(٣)، فالله وحده لا غير هو يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وقد اقتضى هذا القصر ما مضى من حكاية نحوهم، وتكذيبهم بالنعم الشاهدة على وحدانية مالك الكون، وإنكارهم ذلك، والتعبير في الخبر بالمضارع:(يَبۡسُطُ)؛ لإفادة تجدد بسط الرزق وقدره وحدوثه حالًا بعد حال.

كما أكد الطباق بين: (يَبۡسُطُ و يَقۡدِرُ) على عظيم قدرة الله – تعالى- وطلاقة إرادته ومشيئته في الجمع بين الحالين المتناقضين في آن واحد، كما أبرز هذا الطباق البون البعيد بين حالتي البسط والإقتار.

وإنما اقتضى النظم القرآني من الدلائل على بسط الرزق وقدره من فعل الله – تعالى-؛ لأنه أقرب المشاهد المرئية لهم، فكم من كادٍّ غير مرزوق، وكم من آخر يجيئه

---

(١) مفتاح العلوم، ليوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي (ت ٦٢٦هـ)، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، ص ٣١٧، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.

(٢) التكرير بين المثير والتأثير، د/ عز الدين علي السيد، ص ١٣٦، ١٣٧، عالم الكتب، الطبعة: الثانية ١٤٠٧ه/ ١٩٨٦م.

(٣)علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني،أ.د/ بسيوني فيود، ص١٦١، مؤسسة المختار، ط٣، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

الرزق من حيث لا يحتسب، والسبب في ذلك؛ كي يعلم من يظنون أن الرزق يأتي بإعمال العقل أنه لا حيلة في الرزق، فالله يدبر الرزق لمن لا حيلة له في أمر نفسه؛ حتى يتعجب أهل الحيل.[١]

وأما دخول الهمزة في الإثبات فقد جاء في موضع واحد: (قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ) جاء الاستفهام في سياق الاستدلال على ربوبية الله ووحدانيته بدلائل الأرض والسماء، وعرض البراهين الساطعة على انتفاء أدنى شبه بين الله الواحد وبين هذه الآلهة التي يعبدونها من دون الله –تعالى–، فهي لا تملك لعابديها ضرًا ولا نفعًا؛ تبكيتًا لهم على عدم الانتفاع بهذه الأدلة أو الاتعاظ بهذه البراهين.

وقد عمّق من هذه الدلالة أن الاستفهام بمعنى الخبر، أي: أخبروني: إن كانت أوثانكم التي عبدتموها من دون الله تنفعكم أو تضركم؟ فالأمر واضح وظاهر لا شك فيه ولا مراء[٢] .

كما كان لدخول الهمزة على محذوف مقدر، والعطف بالفاء عليه أثر في تعميق هذا التبكيت والزجر[٣]؛ لدلالته على أن هذا الدليل مما تراه العيون ويدرك بالحواس، فلا يكلفهم النظر عناء ولا مشقة، ولا يتطلب مهلة للنظر والتدبر؛ لشدة وضوحه وظهوره والتقدير: «أتفكرتم بعد ما أقررتم فرأيتم ما تدعون من دون الله (إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ

---

(١) ينظر: تفسير أبي السعود ٢٤/ ٣٩ ، والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير، لأحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي (ت: نحو ٧٧٠هـ) ٢٤/ ٣٠، المكتبة العلمية – بيروت.

(٢) دلائل الإعجاز، لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني (ت: ٤٧١هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، ص ١١٩، مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

(٣) ينظر: الزمر– محمد وعلاقتهما بآل حم، دراسة في أسرار البيان ، أ.د/ محمد محمد أبو موسى، ص ٢٥٧وما بعدها، مكتبة وهبة،١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ) أي: أو إن أرادني بنفع هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ فيمنعها سبحانه عني؟»(١).

وكذلك الشأن في مفعول فعل الرؤية التي أوثر فيها الموصول خاصة: (مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ)؛ للمبالغة في تبكيتهم وزجرهم؛ لدلالته على حقارة هذه المعبودات ووضاعة شأنها.

وبما أنه قد ثبت عدم الضر والنفع لها فـ «لا بد من الإقرار بوجود الإله القادر، الحكيم، الرحيم، وثبت أن هذه الأصنام لا قدرة لها على الخير والشر، وإذا كان الأمر كذلك كانت عبادة الله كافية، وكان الاعتماد عليه كافيًا، وهو المراد من قوله: (قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ)، فإذا ثبت هذا الأصل لم يلتفت العاقل إلى تخويف المشركين، فكان المقصود من هذه الآية التنبيه على الجواب عما ذكره الله –تعالى- قبل هذه الآية، وهو قوله تعالى: (وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ)[الزمر: ٣٦]».(٢)

وأما الاستفهام بـــ(هَل)، فقد جاء في موضعين هما: قوله تعالى: (هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ - هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦ) في آية واحدة هي قوله سبحانه: (وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ) [الزُّمَر:٣٨]؛ وذلك بعد أن ساق لهم الأدلة، والبراهين الحسية والعقلية المثبتة والمؤكدة أن الله هو الواحد، الأحد، من خلال الأدلة الكونية في السماوات والأرض،

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت: ١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، ١٢/ ٢٦١، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ.

(٢) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت: ٦٠٦هـ)٢٦/ ٤٥٥ دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ.

ومن خلال تصوير عجز آلهتهم حين يقومون بدعوتها هل تستجيب دعاءهم؟ هل تستطيع أن تكشف عنهم ضرًا، أو تمنع عنهم نفعًا؟ أولم يقروا بأن الله هو الخالق؟ فكان عليهم أن يتأملوا في كل هذا، وأن يتنبهوا إلى بالغ خطئهم، وأن يكون هذا التنبيه والتأمل نقطة البداية لطريق الهداية إلى أن الله وحده هو الخالق، وهو الأحق بالعبادة، وهو الذي يملك كشف الضر عنهم وإنزال الرحمة والنفع لهم.

وأبرز خصائص الاستفهام في هذين الموضعين، تنوع أغراضه وتعدد دلالته، فالاستفهام في الموضعين «إنكار يؤكد الإنكار المفهوم من الهمزة في قوله: (أَفَرَءَيْتُم)[1] نفي وأنكر عليهم اتخاذهم الأصنام آلهة يدعونها ويعبدونها من دون الله؛ مع قيام الدلائل والبراهين على أن الله هو الخالق، المستحق للعبادة، والذي يملك جلب النفع ودفع الضر، واقتضاء الدواعي والأسباب على عجز هذه الآلهة وضعفها وحقارتها، فما كان ينبغي لهم عبادتها بعد كل هذه الدلائل والدواعي.

وهو توبيخ لهم على ذلك وتبكيت وزجر وتقريع، وتصوير لهوان هذه الآلهة، وضعفها وحقارتها وعجزها، وفي هذا حث لهم على التأمل والتفكر والتنبيه لهم على بالغ خطئهم؛ ليعودوا إلى الطريق الحق باتباع النبي ﷺ والإقلاع عن العناد والمكابرة، ويذعنوا للحق الذي جاء به.

ومن هذه الخصائص دخول (هَلْ) في الموضعين على الجملة الاسمية، وذلك على خلاف الأصل فيها؛ إذ الأصل أن تدخل على الفعل؛ وذلك لإبراز المتجدد في معرض الثابت الذي لا يتغير، وهذا أدخل في الدلالة على تصوير لزومها حال العجز والضعف، والحقارة والهوان، وأنها لا تنفك عن هذه الأحوال في وقت من الأوقات، أو حال من الأحوال[2].

---

(١) الزمر – محمد أ. د/ محمد أبو موسى، ص ٢٦٠.

(٢) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، تأليف: عبد المتعال الصعيدي (ت: ١٣٩١هـ)،

وفي إيثار ضمير المؤنث (هُنَّ) العائد إلى أصنامهم مزيد تحقير وتعجيز، وإظهار الضعف في هذه الآلهة وهوانها، فآلهتهم كالإناث ليس لها مقدرة على نصرتهم[1] .

وإضافة الضر والرحمة إلى ضميره سبحانه (ضُرِّهِۦٓ - رَحۡمَتِهِۦ)؛ تقوية لقلب النبي ﷺ وتثبيت لفؤاده، فهو وحده مالك الضر والنفع.

أما الاستفهام بـ(مَنۡ) أتى مرة واحدة في قوله: (مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ)، والمراد به التقرير[2]، بمعنى إلجاء المخاطب إلى الإقرار والاعتراف، بقرينة إنه جاء مجابًا بتعيين المقرر به: (لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ)، وهذا ما يقتضيه مقام مجابهة المشركين والرد عليهم والاستدلال على فساد معتقدهم؛ لأن السؤال والجواب بمثابة الحجة عليهم، فقد اعترفوا بأن الله هو خالق السماوات والأرض وهذا يقتضي توحيده وإفراده بالألوهية، والعبودية، كما أن في الجواب:(لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ) دليلًا قاطعًا على فساد عقيدتهم، وإشراكهم مع الله – تعالى- آلهة أخرى لا تضر ولا تنفع، ووسيلة من وسائل التسجيل والإقرار من خلال هذا الحوار؛ للتسجيل عليهم بإقرارهم بوحدانية الله تعالى.

وإنما حذف المسند في الجواب إيجازًا، واختصارًا وتعويلًا على قرينة ذكره في السؤال.

٢/ ٢٥٤ ، مكتبة الآداب، الطبعة: السابعة عشر: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

(١) الكشاف ٤/ ١٣٠

(٢) الكشاف ٤/ ١٢٩.

المبحث الثاني
الخصائص البلاغية لأسلوب الاستفهام
في تصوير مظاهر القدرة بالدلائل العقلية.

بعد أن ساق النظم القرآني الأدلة الحسية التي تثبت، وتؤكد أن الله هو الواحد الأحد، تتتابع الأدلة والبراهين المؤكدة على وحدانية المولى -ﷻ-، فيعرض النظم القرآني لهم الأدلة العقلية زيادة في التأكيد؛ ليلزمهم الحجة، ويقطع عليهم الطريق بالدليل، وكان لأسلوب الاستفهام في تصوير مظاهر ذلك خصائص بلاغية تتضح في هذا المبحث من خلال مطلبين:

المطلب الأول

الخصائص البلاغية لأسلوب الاستفهام في مقام ضرب الأمثال.

يسوق النظم القرآني الدليل بالمفهوم والعقل من خلال ضرب الأمثال للعباد؛ ليدركوا ما خفي عن بصرهم، وسمعهم؛ فمن فهم وتدبر هذه الأمثال عُد من أهل العقل والحكمة التي من أوتيها فقد أوتي خيراً كثيرًا، وقد جاء الاستفهام في هذا السياق في آية واحدة هي قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٩﴾[الزُّمَر:٢٩]، وفي ضرب المثل هنا غرض مهم، وهو نفي استواء المؤمن والمشرك، والتوحيد والشرك، والإيمان والكفر، وذلك من خلال عرض الدليل القاطع على أن من عَبدَ الله، الواحد، فهو من أُولي العلم، ومن أشرك بالله فهو من الجهلاء الذين ضَلَّ سعيهم في الحياة الدنيا.

ولما كان الرجلان لا يجمعهما مثلًا قال تعالى: (هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ) أتى الاستفهام؛ لإنكار استوائهما ونفيه، بحيث لا يستطيع أن ينطق بذلك[(١)]؛ ليقيم الله الحجة على هؤلاء

(١) ينظر: تفسير أبي السعود، ٧/ ٢٥٣

المكذبين المتكبرين، ويخبرهم أن من أسلم وجهه لله وهو محسن، فقد استمسك بالعروة الوثقى وفاز بالحسنيين.

وإنما خرج الاستفهام مخرج الإنكار والنفي؛ لتنبيه المخاطبين للرجوع إلى أنفسهم، فيعوا بالجواب، فيرتدعوا عما يفعلونه من كفر بالمنعم سبحانه.

والذي يتأمل خصائص الجملة الاستفهامية السابقة:(هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ) يجد أن هذه الخصائص استعمال (هَلۡ) خاصة في الاستفهام .

كما يجد أنَّ أبرز هذه الخصائص: دخول (هَلۡ) – من وجه – على الجملة الفعلية، وهذا هو الأصل فيها؛ إذ طبيعتها إلى الفعل أميل؛ لأنها للتصديق، والتصديق حكم، والحكم إنما يتوجه إلى الصفات والأفعال، وهذه رحم بينها وبين الأفعال(1) .

ودخولها – من وجه آخر- على الجملة الفعلية ذات الفعل المضارع خاصة (يَسۡتَوِيَانِ)؛ لأن اختصاصها به في هذا الموضع هو الأبلغ في نفي الاستواء وإنكاره؛ إذ تخلصه للاستقبال، وهذا يقتضي النفي في الحال وفي الماضي؛ لأنه إذا تأكد الانتفاء في المستقبل، فالانتفاء في الحال والماضي آكد وأوثق(2) .

ومن هذه الخصائص ترك الجواب للسامعين؛ لأنه معلوم للجميع، وهذا من ثقة المتكلم بنفسه واطمئنانه إلى قضيته وأنه لا يخشى مخالفة؛ لافتراضه أن السامع على علم بحقيقة الآمر.

ومن هذه الخصائص خروج الاستفهام عن أصل معناه إلى النفي، أي: لا يستويان مثلا، وهذا يعني أن الجملة إنشاء في اللفظ خبر في المعنى؛ وذلك للتأكيد على التفاوت

---

(1) دلالات التركيب، ص ٢١٧.

(2) مواهب الفتاح، ٢/ ٧١، ودلالات التركيب، ص ٢١٦

الشديد بين الرجلين وبُعد الشقة بينهما، فثمت فرق كبير وتفاوت ظاهر بين القانت العابد لله وحده، وبين المشرك الذي جعل لله شركاء.

ونكر (مَثَلًا) في قوله:(ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا) للإبهام؛ تشويقًا إلى الإيضاح[1]، وثنى الضمير في الجملة موطن البحث: (هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ)؛ لعود الضمير إلى الرجلين: السالم، والذي فيه شركاء متشاكسون، وبناء الكلام على هذا النحو يشبه التفريق مع الجمع؛ فقد فرق بينهما في مضرب المثل، ثم جمع بينهما في نفي استوائهما، والفصل بين الجملة الاستفهامية والكلام السابق عليها؛ لكمال الانقطاع؛ لاختلافها في الخبرية والانشائية لفظًا، دون معنى.

وقد أتت الآية؛ لتوضيح ما أُبهم؛ وتفصيل ما أُجمل من ضرب المثل في القرآن ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٢٧]، فشبه حال الكافر العابد للأصنام بالعبد المملوك لشركاء مختلفين، أخلاقهم سيئة، فهو لا يستطيع إرضاءهم جميعًا، فإن أرضى هذا أسخط عليه ذاك، ووجه الشبه الحيرة والتخبط وعدم الاهتداء والتعب لما هو فيه من اضطراب من أمره حيالهم؛ لأنه أسلم وجهه لأرباب متعددة أهواءهم، فهَمُّه شعاع، وقلبه أوزاع.

ثم شبه الموحد الذي أخلص العبادة لله - عزَّ وجلَّ- بالعبد المملوك لشخص واحد يعرف مقصد سيده، فإن أصاب أثابه، وإن أخطأ عفا عنه وصفح، ووجه الشبه: الشعور بالراحة والأمان والاهتداء؛ لأن الموحد أسلم وجهه لله وحده، فكان المثل وسيلة من وسائل إحضار الصورة الحسية للمُمثَل له في نفس المخاطب[2].

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة٢/ ٣٦

(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ١٢٦، وينظر: الأمثال من الكتاب والسنة، لمحمد بن علي، الحكيم الترمذي (ت: نحو ٣٢٠هـ) تحقيق: د/ السيد الجميلي، ص ٤٠، دار ابن زيدون / دار أسامة – بيروت – دمشق، والبلاغة العربية ١/ ٧٨.

وقد أدى الإطناب عن طريق الإيضاح بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال دورًا في ربط الكلام وتماسكه؛ «فإن المعنى إذا ألقى على سبيل الإجمال والإبهام؛ تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح، فتتوجه إلى ما يرد بعد ذلك، فإذا ألقي كذلك؛ تمكن فيها فضل تمكن وكان شعورها به أتم».(1)

ولما كان الجواب عدم الاستواء وجب على الموحدين حمد الله وشكره على نعمة الإيمان، وزاد التأكيد على نفي الاستواء بإيثار الاعتراض في قوله: (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ) الذي أبطل اتخاذ الشركاء والأنداد، فالحمد لله وحده، لا لغيره من الأنداد، فالاعتراض أتى ليبين فضل أهل الإيمان، فإيمانهم محقق، فهم أهل شرف؛ لذا اختص المولى -عزّ وجلّ- بالحمد دون سواه، مع التعريض بأهل الكفر الذين جعلوا لله أندادًا، فلذلك عاملتهم العبارة الوجيزة على أنهم قد أجابوا، فقال: (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ) أي: على ظهور الحجة عليكم من أقوالكم(2) .

ولما كان الجواب قطعيًا بعدم استوائهما أكد بالإضراب: (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)؛ للتأكيد على أن أكثر هؤلاء يجهلون الحقيقة بأن الله واحد، مع بيانها وظهورها على مرأى العين ومسمع الجميع؛ لأن لهم عقولًا لا يفقهون بها، ولهذا يعبدون آلهة شتى، وفي ختام الآية بنفي العلم عنهم تأكيد لجهلهم بوجوب العبادة لله الواحد، القهار.

---

(1) الإيضاح ٣/ ١٩٦.

(2) المحرر الوجيز، ٤/ ٥٣٠.

المطلب الثاني

الخصائص البلاغية لأسلوب الاستفهام في مقام تهديد المشركين، وتثبيت النبي ﷺ وتسليته.

أ- الخصائص البلاغية لأسلوب الاستفهام في مقام تهديد المشركين.

وبعد ضرب المثل وبيان الفرق بين من يعبد إلهًا واحدًا، ومن يعبد آلهة شتى، أتبعه بدليل آخر من الأدلة التي تفهم بالعقل، فيعرض لنا نموذجًا فيه تهديد ووعيد لمن ظلموا أنفسهم، فكَذَبوا على الله وكذَّبوا رسوله، فليس هناك أظلم ممن ادعى اتخاذه صاحبةً وولدًا، أو ادعى تحليل ما حرّم الله، أو حرّم ما أحلَّه؛ مدعيًا ما ليس له أصل في الواقع وكذّب بالنّبي - ﷺ - وبرسالته، فلن تنفعهم آلهتهم التي يظنون أنها لهم شفعاء، والآيات التي تحدثت عن ذلك وردت في خمسة مواضع من السورة، وهي قوله تعالى:﴿۞فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾[الزُّمَر:٣٢]، وقوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾[الزُّمَر:٤٣]، وقوله:﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٦٠﴾[الزُّمَر:٦٠]، وقوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾[الزُّمَر:٦٤]، وقوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧١﴾[الزُّمَر:٧١]

وحين نتأمل هذه المواضع السابقة لرصد خصائص الاستفهام فيها نجد أن أبرزها تنوع أدوات الاستفهام، فجاءت الصدارة لهمزة الاستفهام في خمسة مواضع، وجاء الاستفهام بـ(مَنْ) في موضع واحد؛ لتنوع السياقات التي ورد فيها أسلوب الاستفهام في هذه المواضع ما بين تهديد، ووعيد في الموضع الأول والثالث، وما بين احتجاج

واستدلال كما في الآية الثانية، وما بين إنكار وتوبيخ وتقريع كما في الآيتين الرابعة والخامسة.

وتصدرت الهمزة في خمسة مواضع؛ لكونها أوسع استعمالاً وتصرُّفًا دون سائر الأدوات؛ إذ تستخدم في الدلالة علي التصور والتصديق، وفي الإثبات والنفي، كما تدخل على جميع أجزاء الجملة فعلًا وفاعلًا، وقيودًا.

والناظر في مواضع الاستفهام بالهمزة -هنا- يجد أنها دخلت على (ليس) خاصة في موضعين: (أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ - أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ)، وعلى (لم) في موضع واحد: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ) فأفادت التقرير علي وجه الثبوت والتحقيق، فالاستفهام الداخل علي الفعل الجامد (ليس) في قوله: (أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ)؛ لتحقيق، وتأكيد، وتقرير أن في جهنم مثوى للكافرين ومستقرًا لهم، وفي هذا تهديد ووعيد، وتخويف وترهيب للكافرين، وقد زاد من وقع هذا التهديد تقديم المسند: (فِي جَهَنَّمَ) علي المسند إليه: (مَثْوًى)؛ ليكون ذكر اسم جهنم وما يتلبس به من هول وفخامة أول ما يقرع السمع؛ فتمتلئ خوفًا ورهبةً، ورعًبا وفزعًا، وكذلك تنكير المسند إليه: (مَثْوًى)؛ لإبهامه؛ لتذهب النفس في تصوره كل مذهب ممكن.

ويجوز أن يفيد الاستفهام إلى جانب التقرير معنى الإنكار؛ ردًا لاعتقادهم أنهم ناجون من النار، الدال عليه تعميمهم على الإعراض عن التدبر في دعوة القران، وفيه نوع تحقير لهم، وتهوين من أمرهم؛ حيث جعل مثواهم ومستقرهم في جهنم وبئس القرار. (١)

ووضع الظاهر موضع المضمر: (لِّلْكَٰفِرِينَ)؛ للتسجيل عليهم بالكفر، والإشارة إلى أنه الحامل لهم على الكذب والتكذيب، وكذلك الإشارة إلى وجوب استحقاقهم العذاب.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/ ٧.

وأخيرًا فإن الاستفهام بالهمزة في ختام الآية جاء تقريرًا للاستفهام بـ(مَن) في أولها، ودليلًا وبرهانًا على مضمونه، فسبب العذاب هو تكذيبهم بالحق، وتكذيبهم من جاء به، وهذا شفاء الصدور وأخذ للحق من كل كاذب كافر.

وفي الموضع الثاني خاطب تعالى نبيَّه بخبر يراه يوم القيامة من حالة الكفار، وفي ضمن هذا الخبر وعيد بيِّن لمعاصريه في قوله تعالى: (وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ)[الزُّمَر: ٦٠]، ويكرر النظم القرآني دخول الاستفهام على الفعل الجامد؛ ليؤكد عدم استطاعة أحد دفع العذاب عن نفسه؛ فهو بين يدي أحكم الحاكمين؛ ليعلم أن تكبره وعناده عن توحيد رب العالمين وإخلاص العبادة له في الدنيا جزاؤه جهنم: (أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ) وفي ذكر النظم: (مَثْوًى) دليل على خلودهم في جهنم وطول إقامتهم فيها[(١)]، فقد أعرضوا عن دعوة الحق ولم يؤمنوا بمن جاءهم من المنذرين؛ لهذا كان سبب كفرهم وعذابهم هو تكبرهم عن دعوة المرسلين، فيأتون أذلاء في أعناقهم السلاسل والحديد، يُصب من فوق رؤوسهم الحميم، ووصفهم بـ (المتكبرين) دون (الكافرين)؛ لأنهم زادوا فوق حجمهم؛ لتأصل الشرك في قلوبهم، وحرصهم على مناصب الرياسة والزعامة، فخالفوا أوامر الله ونواهيه، واستنكفوا عن قبول دعوة الحق واحتالوا للصد عنها؛ فطبع الله على قلوبهم، عن ابن مسعود ﵁ قال: قال رسول الله- ﷺ-: « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر »؛ لجعله ما جعله الله حقًا من توحيد وعبادة باطلاً[(٢)] .

(١) مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (ت: ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ١/ ٢٣، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٢) صحيح مسلم ١/ ٩٢، رقم ٩١، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي بن (سلطان) محمد، نور الدين الملا الهروي القاري (ت: ١٠١٤هـ)، ٨/ ٣١٩٠، دار الفكر، بيروت - لبنان الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

وأتى الاستفهام في الآية الكريمة؛ للتقرير بالإيجاب بمعنى التحقيق والتثبيت أي: (أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ)، ففي موقف الحشر يقف الجميع للحساب في مشهد مهيب يجعل الولدان شيبا، يرى أهل الجنة أهل النار، والجملة الاستفهامية - من وجه آخر- جاءت في موقعها مقررة لمضمون الجملة الحالية: (وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ) وحلول العذاب عليهم، فهاهم يأتون يوم الحساب وقد اسودت وجوههم، فقد كانوا يتقون بها سوء العذاب فأظلمت، وهذه الجملة الحالية: (وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ) فيها تصوير شنيع لما هم عليه في هذا اليوم العصيب، فصورت حالهم وقد أصابتهم الكآبة وانكبوا على وجوههم في جهنم.

أما الموضع الثالث الذي دخلت فيه الهمزة على (لم)، فهو قوله: (وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ)[الزُّمَر:٧١]، حيث ختمت السورة الكريمة بأسلوب استفهامي في صورة تقشعر لها الأبدان، وتنخلع لها القلوب وهي حلول وقت العقاب للكافرين.

وقد بدأت الآية الكريمة ببيان سوء عاقبة المتكبرين، فبعد إقامة الحساب تسوق ملائكة العذاب الكافرين سوقًا عنيفًا؛ لغضبهم وضجرهم من رؤية هؤلاء العصاة، الذين عموا وصموا عن دعوة الحق، وعند وصولهم يتلقاهم خزنة النار بهذا الاستفهام: (أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ ؟) والمعنى المفاد من مباشرة الهمزة لحرف النفي هو التقرير، مع الإنكار المشوب بتقريع وتوبيخ، وزجر وتعنيف بقرينة الجواب الماثل في قوله: (قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ) فهؤلاء الكافرين لن يجدوا إلا الخزي والذل، وسيذوقون ألوانًا من العذاب؛ لأنهم لم يرتدعوا، ويستمعوا لإنذارات رسلهم، الذين هم من جنسهم، وليسوا ملائكة، حتى يعرضوا عنهم، وعبر النظم القرآني بـ(يَأۡتِكُمۡ)؛ لأن

الإتيان يقتضي مجيئهم بشيء[1]، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤﴾[إبراهيم: ٤].

وفي البداية آثر النظم القرآني الفعل المبني لما لم يسم فاعله:(سيق – فتحت)؛ لتعظيم شأن الملائكة- أولًا- وأنهم في ضيق من التعامل مع الكفار؛ لذا هم يدفعونه بعنف أمامهم، وتحقير شأن الكفار –ثانيًا-.

وزيادة على ذلك الوصف، وزيادة في التقريع والتوبيخ قيد الفاعل: (رسل) بالجملة النعتية: (يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ)، وإضافة (آيات) إلى (ربكم) دليل على ما تحمله من البشارة والخير إن سمعوا وفقهوا ما يلقى إليهم من الملك الجبار، ولمَّا لم ينتهوا عن غيهم، وللمبالغة في الزجر عن مكابرتهم قيل: (وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ) في مقابلة البشارة، وتعبير النظم القرآني بصيغة المضارع في: (يأتكم، يتلون، ينذرون)؛ ساعد في نقل الحدث من الماضي إلى الحاضر المشاهد، والدلالة على حدوث التلاوة مرة بعد مرة، وتكرار الإنذار مرة بعد أخرى، فلصيغة المضارع قدرة على تصوير الحدث وإحضار مشهد الحدوث وكأننا نراها حين تقع، وفي جمع النظم القرآني بين: (يتلون، وينذرون)؛ إلزام لهم بإبطال حجتهم في عدم وصول الدعوة لهم، وفي هذا تأكيد؛ لما يتضمنه الاستفهام من معاني الإنكار والتوبيخ والتقريع، وساعد اسم الإشارة: (هذا) على إبراز المشهد وعرض الحقيقة ماثلة شاخصة أمامنا، فالدنيا قد انتهت في حساب الحق سبحانه[2].

ولتنديميهم وتوبيخهم على سوء اختيارهم وعنادهم وإصرارهم على المعصية والتكبر جاء جوابهم بـ(بَلَىٰ) أي: أتونا ودعونا لعبادة الله وحده، وتلوا لنا الآيات وأنذرونا وزجرونا عن طريق الغي والتيه، ومع ذلك لم نقبل طريق الهدى وصرنا في

(١) الفروق اللغوية، ص ٣٠٩.

(٢) خصائص التراكيب أ.د/ محمد أبو موسى، ص٢٦٤.

طريق الضلال، ومن أعجب العجب أن يؤكدوا بأنفسهم هم على الجزاء الذي يستحقونه[1]؛ فحوارهم مع الملائكة ألزمهم الحجة، وقطع عليهم الطريق في عدم الاستجابة لدعوة رسلهم، فإقرارهم بالجواب؛ أكد على حكم الله عليهم باستحقاق العذاب: (وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ) فقد وجب لهم العذاب واستحقوا دخول جهنم، والتعبير بالفعل الماضي: (حَقَّتۡ) ألغى الزمن وطواه طيًّا حتى جعل المستقبل واقعًا يُرى، ويسمع بتفاصيله ودقائقه المخيفة المفزعة، فقد ثبتت لهم كلمة العذاب، كما جاء في الكتاب: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾[هود:١١٩]، وفي إلحاق تاء التأنيث بالفعل: (حق) إشعار بأنهم مشفقون على أنفسهم نادمون على تكذيبهم وعصيانهم لله ورسله، كما أن الإضافة في: (كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ) تهويل وتفظيع لهذه اللحظات المهولة قبل دخول جهنم.

ووضع المظهر(عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ) موضع المضمر(علينا)؛ لتأكيد وقوع العذاب عليهم وليعلم سببه، ففور صدور السؤال أتى الجواب مؤكدًا على كفرهم وبُعدهم عن الطريق المستقيم.

ولما حق عليهم العذاب: (قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ) فنهايتهم قعر جهنم، وخص: (جَهَنَّمَ) من بين أسماء النار؛ لشدة ظلامها - والعياذ بالله- ولاشك في أن التعبير بأسلوب الماضي في موضع المستقبل؛ يجعل الصورة وكأنها وقعت بالفعل ودخلوا النار - نعوذ بالله- فعند دخول العصاة النار؛ تفتح لهم أبوابها فجأة؛ لالتهامهم، كما يلتهم الحيوان المفترس فريسته، أو كما يلتهم الجائع الطعام، تستقبلهم بحرارتها الشديدة، فهي مغلقة لا تفتح إلا لداخل أو خارج منها، كما يفعل بسجناء الدنيا، وهي كناية عن الذل والهوان الذي يلحقهم في هذا الموقف

(١) نظم الدرر، ص ١٦/ ٥٦٦

المهيب، فالكناية صورت مدي الحسرة، والندامة التي لحقتهم؛ لعدم قبول دعوة الهدى.

أما وفود المتقين فيحملون في موكب مهيب إلى الجنة، وأبوابها مفتحةً لهم؛ ليروا الخير العميم، والنعيم المقيم من ذي العزة والملكوت، الحنان المنان، على أهل الطاعات والإحسان تتلقاهم الملائكة بالسلام والترحاب في دار الخلد والمقام. اللهم إنا نسألك هذا السلام وهذه الكرامة، اللهم آمين.

وأما دخول الهمزة في الإثبات فقد جاء في موضعين: (قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ- قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ).

وفي الموضع الأول جاء الاستفهام فيه وهو قوله: (قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ)، حيث دخلت همزة الاستفهام على مقدر، وعطف بالواو عليه، والتقدير: «أيشفعون ولو(كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ) أي: ولو كانوا على هذه الصفة لا يملكون شيئًا قط، حتى يملكوا الشفاعة، ولا عقل لهم، وقيل: الواو للحال، والمعنى: أيشفعون على كل حال؟ »[1].

وقد وقع الاستفهام ملابسا لاستفهام سابق لاستفهام عليه في نظم الآية الكريمة: (أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ) وقد جاء الاستفهامان في سياق الاستدلال على وحدانية الله- ﷻ- وربوبيته، وإبطال إلهية الأصنام وتصوير حقارتها؛ ببيان عجزها وضعفها وانتفاء العقل عنها؛ إنكارًا عليهم وتوبيخًا، وتبكيتًا لهم، وتسفيهًا لعقولهم وتحقيرًا وتهوينًا من شأن معبوداتهم، فما كان ينبغي لهم أن يتخذوا من دون الله آلهة شفعاء وهم غير مالكين لشيء ولا عقل لهم يهتدون به، فكيف يشفع من لا يملك شيئا ولا يفعل؟![2]

(١) الكشاف ٤/ ١٣١، روح المعاني١٢/ ٢٦٤

(٢) ينظر: فتح القدير، ٤/ ٥٣٥ .

والاستفهام الثاني يمثل الدليل والبرهان على بطلان مضمون الاستفهام الأول، ولا شك في أن الإثبات بالدليل والبرهان أبلغ وآكد من الإثبات بلا دليل ولا برهان؛ لدلالته على صحة الأمر المستدل به عليه وصدقه، وبرهان هذا من الفصل بين الجملتين؛ لكمال الاتصال بينهما الذي أسهم هو الآخر في التوكيد على عدم وجود الشفاعة، وتأتيها من هؤلاء الشفعاء المزعومين، وإنما عدَّد الشفاعة في جانب المشركين: (شُفَعَآءَۚ)؛ لتعدد معبوداتهم وكثرتها، واختلافها وتغايرها، ولذا أفردها في جانبه سبحانه في الآية التالية: (قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ) [الزُّمَر: ٤٤]؛ للتأكيد على مضمون التوحيد، وإفراده سبحانه وتعالى بالألوهية والعبودية.

وقدمت الهمزة على الواو؛ لأصالتها في الصدارة؛ تعجيلًا بالإنكار وتوبيخًا، وزجرًا وتبكيتًا، وتسفيهًا وتهكمًا؛ ليبصروا ضلالهم في فعلهم.

وقد عمق من هذه المعاني ورسخها تنكير المفعول: (شَيۡـٔٗا) في سياق النفي؛ لإفادة العموم والشمول المشوب بنوع من التحقير والتهوين، وهذا تأكيد وتقرير لنفي الشفاعة؛ لأن نفي العام يقتضي نفي الخاص؛ لاندراج الخاص اندراجا أوليا.

أما الاستفهام الثاني: (قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ)، فقد جاء في سياقه بعد عرض الدلائل والبراهين الساطعة والمؤكدة على ألوهيته سبحانه ووحدانيته، فالله خالق كل شيء وله مقاليد السماوات والأرض؛ وذلك للإنكار الشديد على المشركين؛ بسبب سؤالهم النبي ﷺ أن يستلم بعض آلهتهم، ويؤمن بها حينًا؛ حتى يؤمنوا به، كما أن فيه توبيخًا لهم على ذلك، وتعريضًا بغبائهم وذمهم بالجهل، كما يصور هذا الاستفهام صلابة موقف النبي ﷺ وغاية ثباته على الحق والإيمان الذي هو عليه(١).

(١) ينظر: الأساليب الإنشائية وأسراها البلاغية في القرآن، د/ صباح دراز، ص١٤١، مطبعة الأمانة، ١٤٠٦ه/ ١٩٨٦م.

وقد تعانق مع الاستفهام في تجسيد هذه الدلالات استهلال الآية بفعل الأمر من القول: (قُلْ) تبكيتًا لهم وتوبيخًا وإعلامًا بأن الله وحده هو المستحق للعبادة، لا تلك الآلهة التي لا تنفع ولا تضر.

وكذلك الهمزة الداخلة على محذوف، والعطف عليه بالفاء: (أَفَغَيْرَ) الدالة على سرعة الحسم، وقوة القطع من دون مهلة أو تراخ، وهذا من ثقته بنفسه، واطمئنانه إلى قضيته وأن الأمر بمعرض من شدة الظهور والوضوح والتقدير: «قل يا محمد لمشركي قومك: أتدعونني إلى عبادة آلهتكم فتأمرونني أن أعبد غير الله؟»(1)، والاستفهام يفيد الإنكار التوبيخي؛ لطلبهم منه عبادة آلهتهم.

وكذلك تقديم المفعول: (غير) على عامله: (أَعْبُدُ) للاختصاص، وهذا يقتضي أن يكون الإنكار في طريق الإحالة والمنع، وأن يكون غير الله –تعالى- بمثابة أن يعبد، وأن يرضى عاقل أن يفعل ذلك من نفسه، فضلًا عن النبي ﷺ، «وأيكون جهل أجهل، وعمى أعمى من ذلك، ولا يكون شيء من ذلك - كما قال الإمام عبدالقاهر - إذا قيل: أأعبد غير الله أيها الجاهلون، وتأمروني بذلك»(2).

وكان للاعتراض في: (تَأْمُرُوٓنِّيٓ) دور في تأكيد الإنكار على خداعهم للنبي ﷺ، فبعد إثبات الأدلة يأمرونه بموافقتهم ومسايرتهم في عباداتهم؛ والغرض منه التنبيه على خطئهم، وزيادة الإنكار عليهم فيما طلبوه، فلم يكن النبي ﷺ ليستجيب لهؤلاء المشركين الضالين، مع التأكيد على استمراره على الدعوة إلى توحيد الله وإخلاص العبادة لله رب العالمين، كما ساعد المد الصوتي مع الإدغام على تعميق هذا الإنكار وتحقيقه، فلم يكن ليحيد ﷺ عن طريق الحق إلى طريق الغي والضلال.

كما أكد الإنكار وصفهم بـ(أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ)؛ زيادة في المبالغة على شدَّة غباوتهم،

---

(1) حدائق الروح والريحان، 25/ 95.

(2) دلائل الإعجاز ص 122.

وتوبيخًا، وتهكمًا من عنادهم ومكابرتهم، مع رؤيتهم ومشاهدتهم بأعينهم، واعترافهم بأن الله خلق السماوات والأرض: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾، فهم لم يوفقوا للعبادة؛ لفرط جهلهم، فالعالم يتسم بالحكمة، وهم قد حرموا هذه النعمة. (١)

وأما الاستفهام بـ (مَنْ) فقد جاء في موضع واحد في قوله: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزُّمَر:٣٢]، وإنما آثر(من) في المواضع التي يسأل بها عما يعقل؛ «للاستغناء بها عن تعداد الأسماء» (٢)، أو تفصيل لا داعي له؛ لدلالتها على الاشتراك والعموم.

والاستفهام هنا وضع موضع الخبر؛ لأن معناه مؤول بالنفي، أي: لا أحد أظلم منهم، وإنما كان كذلك؛ لأنهم أتوا أصنافًا من الظلم العظيم، إما بنسبته سبحانه إلى مالا يليق به، أو بالإخبار بأن الله قال كذا وكذا، أو حكم بكذا وكذا، أو بنسبة القرآن إلى الباطل، أو بأذى المؤمنين، أو بقلب الحقائق وتزييفها، أو بغير ذلك من أوجه الظلم والفساد(٣)، ودخول الاستفهام على أفعل التفضيل؛ للمبالغة في التأكيد على ظلمهم، وأنهم بلغوا في ذلك الغاية التي صاروا بها أظلم من كل ظالم، وفي إيثار لفظ (ٱلصِّدْقِ)، وإيقاع التكذيب عليه تأكيد – من وجه آخر – على أظلميتهم، وتنبيه على أن الذي جاء به النبي ﷺ هو عين الصدق، وهذا يقتضي ذمهم والتعريض بجهلهم، وتجاوزهم للحق،

---

(١) ينظر: الكشاف ١/ ١٣ وينظر: روح المعاني، ١٢/ ٢٧٨.

(٢) المقتضب، لمحمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالى الأزدي، المعروف بالمبرد (ت ٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، ٢/٥٢، عالم الكتب. – بيروت، وشرح المفصل للزمخشري، ليعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا محمد بن علي، موفق الدين الأسدي الموصلي، المعروف بابن يعيش وبابن الصانع (ت ٦٤٣هـ)، قدم له: الدكتور إميل بديع يعقوب، ٣/ ٤٦٢، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م.

(٣) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، ص ٧٢٤، التحرير والتنوير، ٢٤/ ٥، ٦.

واستكبارهم عن قبوله والإذعان له، حيث لم يتأملوا ويتدبروا ما جاءهم به النبي ﷺ وقت تبليغهم إياه، وقدم الكذب على الله- تعالى- في قوله: (مَن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ) على التكذيب بالصدق؛ لبالغ شناعته وفظاعته، والدلالة على أنه رأس كل موبقة وفساد، وأن ما بعده دونه في الشناعة والهول، وقد عمق من هذه الدلالة؛ تعدية الفعل بـ(على)، وإيثار العلم الجليل دون غيره، وتقييد الاستفهام بالجملة الحالية (إِذْ جَآءَهُۥٓ) تأكيد – من وجه آخر-، وتقرير وتحقيق لأظلميتهم؛ لدلالته على ارتفاع الحجة والعذر عنهم؛ حيث بلغتهم الدعوة ووصلت إليهم، ومع ذلك أصروا على عنادهم وتكذيبهم.

ومن ثم كانوا جديرين بهذه النهاية المأساوية، والمقلب السيئ الذي ينتظرهم (أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ).

ومن الملحوظ أن الاستفهام في هذا الموضع وكذا في كل المواضع السابقة، ترك جوابه وحذف؛ للدلالة على أن المخاطب لا يسعه إلا الجواب بما أراده السائل وقصد إليه، وأنه لا يستطيع إنكاره.

ب- الخصائص البلاغية لأسلوب الاستفهام في مقام تثبيت النبي ﷺ وتسليته.

وبعد ضرب المثل والتهديد والوعيد لمن كذَبوا على الله ورسوله – ﷺ –جاءت الآيات لتسلية وتثبيت حبيب الله ﷺ الذي لاقى من أنواع الظلم والطغيان – من عتاة قريش- ألوانا، وقد وعد الله نبيه بالنصر والكفاية والحفظ والرعاية بالانتقام من أهل الغي والضلالة، فلن تنفعهم آلهتهم التي يظنون أنها لهم شفعاء، والآيات التي دلت على ذلك جاءت في موضعين، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾[الزُّمَر:٣٦]، وقوله: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾[الزُّمَر:٣٧]

وحين نتأمل هذين الموضعين السابقين للاستفهام نجد أن أبرز خصائصه أنه جاء بالهمزة في الموضعين، وتصدرت الهمزة فيهما، وهذا ينسجم مع خفتها ودلالتها أصالة

على الاستفهام، فهي «حرف مشترك: يدخل على الأسماء، والأفعال؛ لطلب تصديق، أو تصور، كما تدخل على جميع أجزاء الجملة، ولا يتقدّم عليها شيء منها»(١) .

والناظر في مواضع الاستفهام بالهمزة -هنا- يجد أنها دخلت علي (ليس) في موضعين: قال تعالى: (أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ- أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ)، فأفادت التقرير علي وجه الثبوت والتحقيق، فالاستفهام الداخل علي الفعل الجامد (ليس) في قوله: (أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ)؛ لتقرير الكفاية وتحقيقها، وتثبيتها وتمكينها، فهو إنشاء في معنى الخبر؛ ليتطابق الاستفهام بدلالته مع مقام تثبيت النبي ﷺ، وتطمينه في هذا الموقف المشحون بالإرجاف، فقد كان كفار قريش يحذرون النبي ﷺ من التعرض لأصنامهم ويخوفونه منها فأنزل الله هذه الآية؛ تسلية لقلب النبي ﷺ؛ وهدهدة لنفسه. (٢)

وفيه كذلك لون من التهكم والسخرية من قريش؛ لإرادتهم تخويف النبي ﷺ من آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع.

وقد زاد من تعميق هذه المعاني، وترسيخها زيادة الباء في خبر ليس:(بِكَافٍ) التي أفادت المبالغة في هذه الكفاية والتأكيد عليها.

وكذلك من تقديم ما يشبه العلة، وهي الجملة الاستفهامية: (أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ) وتصدرها الآية على ما يشبه المعل: (وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ)؛ تعجيلًا بطمأنته ﷺ وتسكين فؤاده، وإسراعًا إلى إدخال المسرة على قلبه بأن الله ضامن له الوقاية الكافية والحفظ، وهذا المعنى يستتبع تعجيل مساءة المشركين وإدخال الحزن على نفوسهم، وفي هذه التقديم أيضا دلالة على أن كفايته -عزَّ وجلَّ- لرسوله ﷺ في غاية الوضوح والظهور، فليطمئن قلبًا وليقر عينًا. (٣)

---

(١) شرح المفصل، ٥/ ١٠٤، والجنى الداني، ص٣٠.

(٢) ينظر: مفتاح العلوم، ص ١١١، وبغية الإيضاح، ٢/ ٢٦٣، وروح المعاني، ١٢/ ٢٦٠

(٣)ينظر: نظم الدرر، ١٦/ ٥١٠، التحرير والتنوير، ٢٤/ ١٥، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن

وفي وصف النبي ﷺ بصفة العبودية وإضافته إلى الضمير العائد إليه سبحانه في قوله: (عَبۡدَهُۥ)؛ تشريف وتعظيم، واحتفاء وتكريم له ﷺ[1]، وقد ذكر آلهتهم بصيغة العقلاء:(ٱلَّذِينَ) في قوله: (وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ) إمعانًا في التهكم بهم والسخرية منهم؛ كأنهم نزلوهم بعبادتهم إياهم منزلة العقلاء، مع تمام علمهم بأنه لا عقل لهم فصاروا أضحوكة وموطنًا للتهكم والسخرية، وقد جاء القيد: (مِن دُونِهِۦ)؛ زيادة في هذه المعاني وتعميقًا لها.

وكذلك الشأن في الاستفهام الداخل في قوله: (أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ)؛ لتقرير عزته سبحانه وتعالى ومنعته وشدة انتقامه وبأسه، وهذا يتضمن تهديدًا شديدًا للكافرين، ووعيدًا بالغًا للمشركين الذين أرادوا تخويفه ﷺ بأصنامهم؛ لينقلب السحر على الساحر، وهذا كله في مقام تثبيت النبي ﷺ أدخل وفي تسليته أقوى وآكد؛ لأنه أبلغ في تسكين وتعميق فؤاده؛ لأنه في ضمان عزيز لا يغلب، وفي جانب منتقم لا يُضام.

وفي إيثار علم الجلالة في هذه الآية وسابقتها: (ٱللَّهُ) ووقوعه موقع المسند إليه فيها تعميق لهذه الدلالات وتقرير لها؛ لما يشتمل عليه من معاني الجلال وخصال الكمال؛ ولأنه الأقوى- من جانب- في تربية المهابة وإدخال الروع في نفوس المشركين[2]، وبث الثقة والطمأنينة – من جانب آخر – في نفس النبي ﷺ، وكذلك الشأن في دخول الباء في الخبر: (بِعَزِيز)، وبرزت قيمة التكرار في هذه المواضع؛ «لأن اللفظ المكرر فيه هو المفتاح الذي ينشر الضوء على الصورة؛ لاتصاله الوثيق بالوجدان، فالمتكلم إنما يكرر ما يثير اهتمامًا عنده، وهو يحب في الوقت نفسه أن ينقله إلى نفوس مخاطبيه، أو من في حكم المخاطبين، ممن يصل إليهم القول على مر الزمان.» [3]

الحكيم، د/ عبد العظيم المطعني، ٣/ ٤٣٧، مكتبة وهبة، الطبعة: الثالثة، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ١٣/ ٢٤ .

(٢) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم ٣/ ٤٣٨ .

(٣) التكرير بين المثير والتأثير، ص ١٣٦.

وفي جانب الكفاية ختمت الآية السابقة بقوله:(وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَاد) فمن أضل الله فلا هادي له البتة، وفي جانب العزة والانتقام بدأت الآية الأخيرة بقوله: (وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَاد)؛ لإثبات أن من هداه الله كان الله هو وليه.

المبحث الثالث

خصائص الأساليب الاستفهامية في مقام المقابلة بين أهل الإيمان والكفر

جاء الاستفهام في مقام المقابلة بين أهل الإيمان وأهل الكفر في أربع آيات من سورة الزمر، وهذه الآيات يمكن حصرها على النحو الآتي:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾[الزُّمَر:٩]

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾[الزُّمَر:١٩]

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾[الزُّمَر:٢٢]

﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾[الزُّمَر:٢٤]

وقد أتت آيات هذا المبحث؛ لتعقد مقابلة لطيفة بين أهل الإيمان والكفر في الدنيا والآخرة، فمنهم من يقنت لربه، فينير له مولاه الطريق، فيعلم الحقيقة وتزيده النعمة إيمانًا، ومنهم من يعبد الله على حرف، فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته ضراء رجع إلى مولاه، ثم سرعان ما يزول عنه الضر وينقلب هذا العبد على عقبيه، ويجعل لله أندادًا، وينسى رجوعه وتضرعه لله حال تلك المحنة، فتكون عاقبته الخزي والتيه والضلال، ومنهم من شرح الله صدره للإسلام فنوَّر له طريقه، فهو يسير على هدى من ربه، ومنهم غير ذلك.

والمتأمل في هذه الآيات الأربع المذكورة يجد أن الرباط الذي يجمعها والعروة التي تشدها هي أداة الاستفهام الهمزة في معظم هذه المواضع إلا في موضع واحد جاء الاستفهام فيه بـ(هَلْ)، وهو قوله تعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ

)، وقد دخلت الهمزة في أربعة مواضع من خمسة على الموصول المشترك (مَن)، واتصلت به اتصالًا مباشرًا أو مفصولًا بينها بالفاء؛ وذلك لإطلاق المقابلة وتعميمها؛ لتعم وتشمل كل من يتصف بصفات أحد الفريقين المتقابلين، فليس المقصود تخصيص أحد بعينه أو تعيينه، وهذه هي قيمة التعبير بالموصول العام في هذه المواضع.

كما أن فيه نوعًا من تعظيم المذكور وتفخيمه إذا كان من فريق أهل الإيمان، أو تهويله وتفظيعه إذا كان من أهل الكفر والشقاق.

ودخلت الهمزة في موضع واحد على ضمير المخاطب في قوله: (أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ)؛ لأن القصد ليس إلى عقد موازنة بين النبي ﷺ، وبين غيره يستطيع إنقاذهم من النار، وإنما القصد إلى لومه ﷺ وعتابه، والإنكار عليه حرصه على إنقاذهم، حتى كأنه دون غيره يستطيع إنقاذهم من النار.

والمتأمل في هذه الآيات التي دخل فيها الاستفهام على الاسم الموصول، يجد أنها بنيت جميعها على حذف المقابل لما بعد الهمزة، وهذا يمثل نوعًا من أنواع الحذف، حذف الثاني لدلالة الأول عليه؛ ليصرف الذهن إلى الصورة المذكورة وحدها؛ ليتمكن في القلب ويبقى أثرها فيه، فلا يرد على الخاطر غيرها.

كما أن في حذف المقابل إذا كان المذكور بعد الهمزة هم أهل الإيمان كما في قوله: (أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَٰخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ)،

وقوله: (أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ)؛ تعظيمًا وتفخيمًا من شأنه، ومدحًا وثناءً عليه، وأنه في موضع الحظوة والحفاوة، وتحقيرًا وتهوينًا من شأن المحذوف، وأنه ليس أهلاً لأن يوضع بإزاء أهل الإيمان والحق، ويسلك معهم في سلك واحد.

أو تهويلاً، وتفظيعًا، وتبشيعًا من شأن المذكور إذا كان من أهل الكفر والشقاق كما في قوله: (أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ) وقوله: (أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ

ٱلْقِيَٰمَةِۚ) ورسم صورة منفرة له تقرع الذهن أول ما تقرع، فيرتدع المخالف، ويفكر في موقفه الذي هو عليه، فيعود إلى رشده وعقله، ونأيًا بأهل الحق والإيمان؛ لشرفهم وفضلهم أن يذكروا في مقابلة هؤلاء المجرمين الكافرين، فمقامهم أعلى ومنزلتهم أسمى أن يقرنوا بهم في سلك واحد.

كما أن في الحذف في هذا وذاك تعميقًا لانتفاء المساواة بين الفريقين في العقيدة والسلوك، وفي المنزلة عند الله تعالى. (1)

وقد عقدت الآية الأولى مقابلة بين عابد قانت لله آناء الليل ساجدًا لله، وقائمًا يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، وبين آخر ليس على هذه الصفة، كما عقدت مقابلة بين العلماء وغيرهم ممن لا يعلمون قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾[الزُّمَر:٩]، وهذا هو الموضع الوحيد الذي جاء فيه الاستفهام بـ(هل).

والآية نزلت في عثمان بن عفان -رضي الله عنه-، وقيل: في عمار بن ياسر- رضي الله عنه- والظاهر أن المراد المتصف بذلك من غير تعيين، وفيها دليل على فضل الخوف والرجاء (2) .

عقدت الآية مقابلة لطيفة بين من يعمل على طاعة الله ومن يعصيه، من يتقرَّب إليه بأفضل العبادات في أفضل الأوقات، خائفًا راجيًا جنة عرضها السماوات والأرض، وبين من يعصِ الله سرًّا وعلانية، بين العالم حقيقة بأن الله واحد، مخلص في عبادته لله رب العالمين، والجاهل المعاند الذي جعل لله أندادًا، قال تعالى:﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ ﴾[الزُّمَر:٩]، وكان للاستفهام الإنكاري دور في التأكيد على هذه المقابلة ونفي المساواة في: (أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ)؛ فالهمزة

(1) ينظر: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، أ. د/ عبدالعظيم المطعني، ٢/ ٣٩

(2) ينظر: الجواهر الحسان، ٥/ ٨٢

للإنكار، والتقدير: أهذا القانت خير أم هذا الكافر الذي جعل لله أندادًا؟(١) ودل على المحذوف قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾[الزُّمَر:٨] (٢)، واستهلال النظم الكريم بالجملة الاستفهامية؛ لإثارته السامع، فالاستفهام يمتحن أذهان الطلبة بما يخفي مع بيانه لهم إن لم يفهموه، وخص الهمزة هنا؛ لكونها أعم من سائر أخواتها؛ لاشتراكها بين التصديق والتصور، فهي لا تفيد غير الاستفهام، وحسُن دخولها على الاسم هنا؛ لأنها أصل الاستفهام(٣)، والمعنى المستفاد من مباشرة الهمزة للاسم الموصول (من)؛ عدم المساواة بين من حسُن إيمانه ومن أصر على عناده وجعل لله أندادًا، وحذف المسند المقابل؛ ليفيد الحذف إهمال هذا الكافر العاصي، الجاهل، فليس له مكانة عند الله ليذكره مرة أخرى؛ بدليل قوله تعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ)[الزُّمَر:٩].

وقد وظفت الجملة الاستفهامية؛ لتؤكد نفي المساواة، مع وجود الفرق الشاسع بين من يعبد الله حق عبادته، ومن يعبده على حرف، إن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة، فقد قُصِد من وراء الاستفهام هنا الحكم على المخاطب بالإقرار رفعًا من شأن هذا المطيع العابد آناء الليل، والخفض من شأن هذا الكافر، المتمتع بكفره، فالجملة الاستفهامية استحضرت الصورة كاملة؛ لتتسق الجملة

---

(١) ينظر: الكشاف، ٤/ ١١٦

(٢) ينظر: مغني اللبيب، ١/ ١٨

(٣) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، ١/ ١٤٦، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩، و مغني اللبيب، ١/ ٤٥٧، والمقتضب، ٢/ ٧٤ .

مع نظمها، واستخدم النظم القرآني: (قَٰنِتٌ[١]) دون: (طائع)؛ لأنه الأنسب لمقام الإنكار ونفي المساواة؛ لما يضفيه عُنصر المشاهدة من التأكيد على وجوب إفراد الله – تعالى- بالعبادة دون غيره من المخلوقات. [٢]

وفي اختصاص وقت الليل: (ءَانَآءَ [٣] ٱلَّيۡلِ)؛ لأنه أبعد عن الرياء والسمعة، فكل جوارحه خلُصتْ لله – عزَّ وجلَّ-، يتجافى جنبه عن مضجعه؛ خوفًا وطمعًا، يبذل قصارى جهده؛ رغبة في رضا ربِّه، ولمَّا كان الليل وقت السكون والراحة، فإذا صرف روحه إلى العبادة كان أشد وأشق على النفس، وللبدن أتعب وأنصب، فكانت أدخل في معنى التكليف وأفضل عند الله[٤]، ولقد توافق الامتداد الصوتي للفظ: (ءَانَآءَ) مع المعنى وأكده والمراد به: ساعات الليل، فالعابد المطيع يقضي ليله في التلاوة والدعاء، والابتهال والتضرع لله – عزَّ وجلَّ-، كما أكّد الاسم الاستمرار والثبوت، فهو دائم الطاعة لله لا يثنيه، ولا يشغله شيء عن العبادة لخالقه الذي سوَّاه من عَدَم .

وخص السجود والقيام من أركان الصلاة: (سَاجِدًا وَقَآئِمًا)؛ لأن السجود شريف بهيئته، والقيام شريف بذكره، ثم قَدّمَ السجود على القيام؛ لأن السجود أفضل الأركان، قال –ﷺ –: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ – عَزَّ وَجَلَّ- وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ»[٥]،

---

(١) القنوت: الإمساك عن الكلام، وقيل: الدعاء في الصلاة. والقنوت: الخشوع والإقرار بالعبودية، والقيام بالطاعة التي ليس معها معصية، وقيل: القيام، وقيل: إطالة القيام، لسان العرب، والقاموس المحيط، مادة (قنت).

(٢) ينظر: دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبدالقاهر في التشبيه والتمثيل، والتقديم والتأخير، تأليف أ.د/ عبدالهادي العدل، ضبطها أ. د/ عبدالسلام سرحان، ص ٢٥٢، دار الفكر الحديث للطبع والنشر، د- ط، ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م.

(٣) آناء الليل: ساعاته، لسان العرب، مادة (إنى).

(٤) ينظر: البحر المحيط، ص ٣٩٨ .

(٥) صحيح مسلم،١/ ٣٥٠، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم ٤٨٢ .

وقال – ﷺ -: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً»(١)، أقرب ما يكون الإنسان من رحمة ربه حاصلًا في حال كونه ساجدًا، ومجيء الحال على وزن فاعل: (سَاجِدًا وَقَآئِمًا)؛ لما فيه من دلالة قوية على ثبات هذا العبد وقوة إيمانه، فهو يخِر ساجدًا لمولاه دون تردد في تضرع وخضوع تام يخلو من المراءآة والكبر، ودلالة الحال تتفق مع طبيعة هذا العابد، فقد جُبِل على الطاعة، والانصياع التام لأوامر الله، فقد صورت الآية طبيعة المطيع، فهيئاته بين السجود داعيًا مبتهلًا، وبين القيام يتلو آيات الله، ويدعوه يرجو رحمته ويخشى عذابه؛ لذا يتحين أفضل الأوقات؛ ليقوم بأفضل الأعمال؛ ليعظُم أجره وترفع درجته، وساعد شبه كمال الاتصال (٢) في بيان مزية المؤمن على الكافر، فقنوته ثابت مستمر في كل ليلة وليس ليلة واحدة، فهو دائم الصلاة يتلو آيات الله قائمًا، ويدعوه ساجدًا وقائمًا، قال – ﷺ: «أفضل الصلاة طول القنوت»(٣)، فقد أثارت الجملة الاستفهامية: (أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ) سؤالاً: ما باله يفعل ذلك؟ فكان الجواب: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾، فالجملة الثانية أتت؛ لتطفئ لهيب الشوق الذي «أثارته الجملة الأولى في نفس المتلقي، وتشبع هذا التطلع العاطفي للمجهول، فيتأكد المعنى من الناحية العقلية، ويحقق المتعة النفسية، ويشبع حاسة الفن والجمال»(٤) .

وتعبير النظم القرآني بصيغة المضارع: (يحذر ويرجو)؛ للدلالة عل التجدد والحدوث، وأن هذا الحذر والرجاء دأبه الذي يتكرر منه مرة بعد مرة وحالًا بعد حال،

---

(١) السنن الصغرى للنسائي، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (ت: ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح ٢/ ٢٢٦، ٢٢٨ باب، أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ–رقم ١١٣٧، ١١٣٩، مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

(٢) ينظر: بغية الإيضاح، ٢/ ٢٩٣.

(٣) صحيح مسلم،١/ ٥٢٠، باب أفضل الصلاة طول القنوت، رقم ٧٥٦.

(٤) الفصل والوصل، د/ صبَّاح دراز، ص ١١٦، مطبعة الأمانة، الطبعة: الأولى، ١٩٨٦م .

كلما قام في جوف الليل ساجدًا، ووصل جملة: (وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ) بجملة: (يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ)؛ للتوسط بين الكمالين؛ فقد اتفقت الجملتان في الخبرية لفظًا ومعنى، واتحد المسند إليه فيهما، أي: يحذر الوقوع في المعصية؛ خوفًا وخشيةً من عقاب الآخرة، ويرجو رضوانه تعالى؛ لدخول جنته، فقرن بينهما؛ لأن «الحذر هو: التحفظ مما لم يكن إذا علم أنه يكون، أو ظن ذلك، والرجاء هو: الظن بوقوع الخير الذي يعتري صاحبه الشك فيه إلا أن ظنه أغلب، والرجاء: الأمل في الخير، ولا يكون الرجاء إلا عن سبب يدعو إليه من كرم المرجو»(١)، فالمراد من الرحمة: الجنة التي تحل فيها الرحمة، فهم في جنة تحل فيها رحمة الله، ففيه مجاز مرسل، علاقته الحالية(٢).

وأضاف الرحمة إلى عنوان ربوبيته سبحانه: (رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ)؛ للدلالة على «أن جانب الرجاء أكمل، وأولى أن ينسب إلى الله تعالى» (٣).

ثم يأمر المولى نبيه ببيان الحق، والتنبيه على شرف أهل العلم، ودنو أهل الجهل: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ ﴾[الزُّمَر:٩]، وهذا هو الموضع الوحيد الذي جاء فيه الاستفهام في هذا المقام بـ(هل)، والأمر في: (قل)؛ للدلالة أهمية الأمر الملقى على عاتقه ﷺ، وقد أفاد الاستفهام في: (﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ) تحقق الإنكار وتأكيد دلالته على عدم المساواة بين أهل العلم الطائعين، وأهل الجهل

(١) الفروق اللغوية، ص، ٢٤٠، ٢٤٤.

(٢) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، لأحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (ت ١٣٦٢هـ)، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، ص ٢٥٤، المكتبة العصرية، بيروت، د-ط-ت.

(٣) فتحُ البيان في مقاصد القرآن، لأبي الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي (ت: ١٣٠٧هـ)، عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه: عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، ١٢/ ٨٨، المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا – بَيروت، عام: ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢م.

الكافرين؛ ولذلك جاء فيه (هل) إذ لا يليها الاسم في الجملة الفعلية، كما أريد بالاستفهام بها: «التحريك من حمية الجاهل وأنفته ليهاب به إلى التعلم، ولينهض بنفسه عن صفة الجهل إلى شرف العلم» (١).

ووقوع طباق السلب (٢) في طيات الاستفهام؛ نبَّه على أن أهل العلم القانتين الطائعين في أعلى معارج الخير، وكون أهل الجهل، العُصاة الكافرين في أقصى مدارج الشر؛ فالعالمون يعلمون قدر مولاهم وخالقهم جلَّ في علاه، ففتح الله عليهم فعلموا حقيقة من أوجد هذا الكون، فأخلصوا له سبحانه العبادة دون فتور أو ضجر، والذين لا يعلمون، عبدوا غير الله، وجعلوا له شركاء، وختم الآية بأسلوب القصر بإنما: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٩﴾[الزُّمَر:٩]؛ لأنها» تستعمل؛ لتصحيح اعتقاد، أو ظن يذهب إلى نقيض المفهوم منها ...، فهي تتميز في أنه يعقل فيها الحكمان أي: الإثبات والنفي، إثبات التذكر لأولي الألباب، ونفيه عما سواهم دفعة واحدة، ويفهم المعنيان من الجملة الواقعة في حيز إنما؛ لأنها وضعت من قبل الواضع؛ لإفادة الإثبات والنفي معا»(٣)، فنفى صفة العقل عن الكفار العُصاة وأثبتها للمؤمنين، فهؤلاء الكفار اختلت عقولهم فلم يعتبروا، فرفضوا التفكر في ملكوته سبحانه، ولم يتأثروا بالآيات الدالة على عظيم قدرته جلَّ شأنه، وقد أكدت جملة القصر على عظم التذكر، وساعد ذلك إظهار التاء في (يَتَذَكَّرُ) دون إدغامها، وإيثار النظم لفعل التذكر؛ تشريف للمؤمنين، وتعريض بالمشركين وتحقير لهم، فصاروا كالأنعام في عدم العقل، فقد نسوا أن الله بيده الضر والنفع، بدليل قوله سبحانه: (وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ)[الزمر:٨]،

(١) الكشاف ١/ ٥٥٤.

(٢) طباق السلب؛ وهو الجمع بين فعلي مصدر واحد مثبت ومنفي، أو أمر ونهي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح٤/ ٥٧٥.

(٣) الأداء الجمالي، أ. د/ الوصيف، ص ١٣٠.

وزيادة في التهكم والسخرية منهم أضاف النظم الكريم (أولو) لـ(لألباب)، فهم ليسوا جهلاء فقط، بل فقدوا عقولهم، فصاروا كالبهائم، بخلاف جانب المؤمنين الذين تفتحت بصائرهم وعقولهم، فأدركوا حقيقة الوجود فانتفعوا بما رأوا وسمعوا، فهم يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السماوات والأرض؛ يدعون ربهم رغبًا ورهبًا.

وتأتي الآية الثانية بعد أن أمر الله نبيه - ﷺ - بإعلام قومه أنه لا يستوي من آمن وعرف الله؛ فأخلص العبادة ففاز وغنم، ومن حاد عن طريق الهدى والرشاد إلى طريق الجهل، والغي، وجعل لله شركاء؛ فخسر وندم، ثم يخبر الله نبيه بأنه لا يملك هداية أحد، ولا إخراجه من النار بعد أن كتبه الله من أهل الشقاء، المطرودين، المحرومين من رضوانه ورحمته: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ١٩﴾[الزُّمَر:١٩].

وهذه الآية قيل: نزلت في أبي جهل فقد نفَّذ عليه الوعيد بالعذاب، وقال ابن عباس: يريد أبا لهب وولده ومن تخلف من عشيرة النبي - ﷺ - عن الإيمان. (١)

وقد اشتملت الآية الكريمة على استفهامين، تقدمت فيهما الهمزة على حرف العطف الفاء؛ تأكيدًا على أصالتها في صدر الجملة، فهمزة الاستفهام إذا كانت في جملة معطوفة بالفاء، أو الواو، أو ثم؛ فإنها تقدم على العاطف؛ عملًا بأصالتها في التقديم والتصدير في حين تتأخر بقية الأدوات(٢)، والاستفهام بالهمزة في الموضع الأول للإنكار والاستبعاد، وكُررت في الجملة الثانية؛ لتأكيد هذا الإنكار والاستبعاد، والتقدير: أأنت

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ١٥/ ٢٤٤، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م، والبحر المحيط ٩/ ١٩٣.

(٢) الكتاب ٣/ ١٨٧

مالك أمرهم فمن حق عليه العذاب فأنت تنقذه؟ (١)

وجاء التعبير بالمضي: (حَقَّ) توكيدا للإنكار؛ لما تشعر به من تحقق العدل ونفي الظلم؛ لإفادتها الحصول على وجه القطع واليقين. (٢)

وفي حذف المقابل لما بعد الهمزة في الجملة الأولى؛ صونًا لأهل الإيمان أن ينضموا مع من حق عليه كلمة العذاب في سلك واحد؛ لشرفهم، ورفعة قدرهم، وعلو مقامهم، وهذا يعكس التفاوت البين والبون الشاسع بين الفريقين.

وقدَّم الاسم في جملة: (أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ)؛ لأن الإنكار موجه إلى الفاعل، على معنى أأنت لا غيرك تفعل ذلك؟ بل نحن الذين نستطيع إنقاذهم وتخليصهم، يقول الإمام عبد القاهر: «ولو كانَ يكونُ للإنكارِ، وكان المعنى فيه من بدء الأمر لكان ينبغي أن لا يجيء فيما لا يقول عاقل: إنه يكون حتى ينكر عليه كقولهم: أتصعدُ إلى السماء؟ أتستطيعُ أن تنقلَ الجبالَ؟ أَإلى ردَّ ما مضَى سبيلٌ؟ وإذ قد عرفتَ ذلك فإنَّه لا يقرر بالمُحال وبما لا يقولُ أحدٌ: إنه يكونُ إلاّ على سبيلِ التمثيل وعلى أن يقالَ له: إنَّك في دعواك ما ادَّعيتَ بمنزلةِ مَن يدَّعي هذا المُحال، وإنك في طَمَعِك في الذي طَمِعْتَ فيه بمنزلةِ مَن يطمعُ في الممتنع، وإذ قد عَرَفْتَ هذا، فَمِمَّا هو من هذا الضَرب قولُه تعالى: (أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِى ٱلۡعُمۡىَ) [الزُّخرُف:٤٠]، ليس إِسماعُ الصمَّ مما يدَّعيه أحدٌ فيكون ذلك للإنكار.

وإنَّما المعنى فيه التَّمثيلُ والتَّشبيهُ وأن ينزَّلَ الذي يُظَنُّ بهم أنهم يَسْمعون أو أنه يستطيعُ إسماعَهم منزلةَ مَن يَرى أنه يُسْمِعُ الصُّمَّ ويَهدي العُمْيَ، ثمَّ المعنى في تقديم الاسمِ وأنْ لم يُقلْ: « أتُسمِعُ الصمَّ؟ « هو أن يقالَ للنبيِّ: أأنتَ خُصوصاً قد أوتيتَ أنْ تُسمعَ الصُّمَّ؟ وأن يُجْعَلَ في ظَنَّه أنَّه يستطيعُ إِسماعَهم بمثابةِ مَن يظنُّ أنَّه قد أُوتيَ قدرةً

(١)ينظر: إعراب القرآن وبيانه، لمحيي الدين درويش، ٨/ ٤٠٥ ، والبلاغة العربية ١/ ٣٠٢.

(٢) ينظر: الاستفهام البلاغي، ٣/ ٤١٧.

على إِسماعِ الصُّمَّ «. [1]

وساعدت الاستعارة التمثيلية في دعم الأسلوب الاستفهامي، حيث شبه بذلُه -ﷺ- جهده في دعوة قومه إلى الإيمان وإشفاقه عليهم بهيئة من يستطيع تخليص من يُشرف على الهلاك بالوقوع في النار، والجامع عدم حصول النفع؛ لفوات الفرصة فقد وجبت لهم النار. [2]

والمتأمل في الاستفهام الأول؛ يلحظ خلو الفعل من تاء التأنيث التي تدل على اللين والشفقة: (أَفَمَنْ حَقَّ)، فقد حذفت للتهويل والتفخيم من شأن هذا العذاب، والتعبير بحرف الاستعلاء(على) دل على تمكن العذاب منهم؛ فالظلل من فوقهم:(لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ) [الزُّمَر:١٦]، والحميم يُصَب من فوق رؤوسهم، والعذاب يغشاهم: (مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ) [العنكبوت:٥٥].

أما التعبير بالاسم الموصول وصلته في قوله: (أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ)؛ فجاء تهويلاً لمصيرهم، وتفظيعًا لمآلهم، لاسيما وقد آثر الموصول العام (من)، وفيه نوع من عدم المبالاة بهم.

وأما التعبير بحرف الظرفية في قوله: (فِي ٱلنَّارِ)؛ فللدلالة على تحقق وجوب النار لهم وانغماسهم فيها، وتمكنها منهم تمكن الظرف من المظروف، (لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ) [الزُّمَر:١٦].

وأما الآية الثالثة، فجاءت الجملة الاستفهامية فيها: (أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ) [الزُّمَر:٢٢]؛ لبيان الفرق الشاسع، والهوة السحيقة بين من آمن وأخلص وجهه لله، وبين من أصرَّ على ركوب مطية الشرك.

(١) دلائل الإعجاز، ص ١٢٠.

(٢) ينظر: روح المعاني ١٢/ ٢٤٣

روي أن هذه الآية: (أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ) نزلت في علي وحمزة، وأبي لهب وابنه وهما اللذان كانا من القاسية قلوبهم[1].

والآية كأنها وقعت موقع العلة في بيان اختصاص أولي الألباب بالذكرى، وشرح الصدر، واختصاصهم بالإسلام: (أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ)، فكما نزل الماء من السماء؛ ليحيي الأرض بعد موتها، نزل التكليف من المولى ﷻ- لأولي الألباب؛ فشُرحت به قلوب المؤمنين الموحدين، وضاقت به قلوب المشركين، وقابلت الآية بين: من شرح الله صدره للإسلام؛ فهو على نور من ربه، وبين من هو قاسي القلب ضيق الصدر[2]، فمن كان ذا لُب حكيم رشيد، وتدبر آيات الله التي خلقها، هداه الله؛ لتلقي كلامه ووحيه الذي نزل من السماء، فيحيا، كما تحيي الغيوث الأرض الميتة، فتدب فيها الحياة وتنبض بالحركة؛ لتخرج أطيب الثمرات، فهؤلاء صار ذكر الله أنسًا لقلوبهم: (أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ)[الرعد: ٢٨]، وأما من قست قلوبهم، وصموا آذانهم عن دعوة الحق فقلوبهم كالصفوان، لا تؤثر فيه الأمطار الشديدة، فلا حياة في قلوبهم ولا روحًا، صرف الله قلوبهم عن الطاعة؛ لعلمه ما حوته نفوسهم، وما انطوت عليه ضمائرهم من شرور ومفاسد، فطبع عليها؛ كي لا يصلها هداية ولا نور، وكان للاستفهام الإنكاري دور في التأكيد على هذه المقابلة: (أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ)[الزُّمَر:٢٢]، والهمزة للإنكار قُدِّمت على العاطف؛ لأن من شأن الاستفهام لكونه أهم أن يصدر به الكلام وأن لا يتقدم عليه شيء؛ لتهيئة النفس؛ لتتلقى

(١) ينظر: أسباب نزول القرآن،: لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت ٤٦٨هـ)، المحقق: عصام بن عبد المحسن الحميدان،ص ٣٦٩، دار الإصلاح – الدمام، الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود، ٧/ ٢٥٠، وينظر: فتح القدير للشوكاني، ٤/ ٥٢٦.

من السياق ما يجيش به من خواطر ومشاعر وصور[1]، والتقدير: أهذا الذي شرح الله صدره فأسلم وسلَّم لمولاه، كمن قسا قلبه فأعرض عن أمر الله؟ ودل على المحذوف قوله تعالى: (فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ)، فقد وسَّع الله صدره؛ لقبول الحق فلا يضيق أبدا[2].

وحذف المسند وهو: (من كفر فقسى قلبه)؛ لعدم الاهتمام به، وتحقيرًا وازدراءً به فليس له مكانة، أو مزية حتى يقدم أو يذكر، فعندما يذكر الله تزداد قسوة قلوبهم، ويصروا على عنادهم، فقد طردوا من رحمته تعالى، وأكد على ذلك التعبير بـــ(فَوَيْلٌ)؛ للدلالة على شدة الوعيد وسوء العاقبة، واسم الإشارة للبعيد: (أُوْلَٰٓئِكَ)، فهناك فرق شاسع بين من نوّر الله له دربه، ومن أضله وختم على قلبه، كلما ذكر اسم الله بعد عن الحق وازداد قسوة، فهو يسير في ظلام دامس.

وقد شبه (النور) بمطية ذلول، يمتطيها صاحبها لقضاء حوائجه، وحذف المشبه به ورمز له بلازم من لوازمه، وهو العلو (على).

ولعل الحذف لبيان الفرق الشاسع والهوة العظيمة بين من يسير على النور ومن يتخبط في براثن التيه، فاهتم بأمر المؤمن هنا؛ لعلو منزلته وسمو مكانته، وانضمام الاستعارة المكنية في قوله: (فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ) إلى الاستفهام والحذف؛ أكد على انتفاء الشبه انتفاءً مطلقًا بين من جعل الله له نورًا فامتلأ قلبه بالإيمان، وبين من ضاقت عليهم أنفسهم، فضاقت صدورهم ذرعًا بالإيمان.

وهذا الذي ظفر بالقبول والنور من الله، نور تلك الكلمة التي فاقت بحسنها جميع الكلمات، فلا نهاية لعذوبتها، فالمتصف بها يحوطه النور، وتشبعت أعضاؤه بالنور، وامتلأ قلبه بالنور، يمشي على نور، يُسلمه لنور، وحياته تتوهج وتتلألأ بالنور، فقد أفلح

(١) ينظر: روح المعاني، ١٢/ ٢٤٦، مفتاح العلوم، ص ١١٤، دلالات التركيب، ص ٢٤٥.
(٢) ينظر: الزمر – محمد، أ. د/ محمد أبوموسى، ص ١٦٠.

هذا العبد الفائز بالزيادة، فهذه الجملة: (فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ) تصرف أصحاب العقول للتدبر في ماهية هذا النور الذي شمل من شُرح صدره «صورة تملأ القلب شوقًا لمعايشة هذا النور، وتجعل الألسنة تلهج بالدعاء للكريم المتعال بالرضا عن العباد؛ كيف لا يشمله النور، وهو لايزال يتقرب لربه بالفرائض والنوافل، حتى حظي بالحب الإلهي، ونتج عن هذا تعهد رب العزة بحمايته، فقد أحبه، فصار سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، فقد ضاعف له النور مؤكدًا بحرف الاستعلاء، فالنور نور الهدى يقذفه الله في قلبه الذي رقَّ، وذلَّ وخشع للرحمن». (١)

وعبر النظم القرآني بـــ(شرح) دون فتح وبسط؛ لأن الله – تعالى- قد بيَّن وأزال وجه الإشكال، وجلَّى وأظهر لهم الآيات الدالة على عظيم صنعه (٢) ، ومن ثم أذعنوا وأخلصوا الإيمان بإفراده سبحانه بالعبودية، وقد عبر بالمفرد: (صَدْرَهُ) في جانب المؤمن وجمع: (قُلُوبُهُمْ) في جانب الكافر؛ للدلالة والتأكيد على أن المؤمنين كالجسد الواحد، أمّا الكفار فتحسبهم جميعًا وقلوبهم شتَّى ومشاربهم ووجهاتهم متغايرة، وفي التعبير بـــ(الصدر) مجاز مرسل علاقته المجاورة.

كما أكد النظم الكريم على انتفاء المساواة بتلك الجملة الدعائية: (فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم)، ودخول الفاء الفصيحة التي دلت على محذوف قبلها(٣) تقديره: إذا كان من شرح صدره، ومن قسا قلبه لا يستويان: (فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم)، ومسوغ الابتداء بالنكرة هنا هو الدعاء؛ لأن سبب قسوة قلوبهم أن جفت وغلظت عن قبول دعوة الحق (مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ)، ونتيجة لغيهم واستمرارهم على الضلال؛ صار ذكر الله سببًا في قساوة قلوبهم(٤)،

(١) خصائص التراكيب، أ. د/ محمد أبو موسى، ص ٢٧٦

(٢) ينظر: الفروق اللغوية، ص ٥٨، وينظر: مقاييس اللغة ٣/ ٢٦٩.

(٣) الإيضاح،٣/ ١٩٢.

(٤) ينظر: الكشاف، ص١٢٢، وروح المعاني، ١٢/ ٢٤٦، وتفسير أبي السعود، ٧/ ٢٥٠، وينظر روح البيان، ٨/ ٩٥.

فالويل لقلوبهم وآذانهم التي سمعت كلام الله فلم تعيه، والويل لعيونهم التي رأت الآيات الدالة على عظمة الخالق فلم تؤوب إلى الحق، الويل وسوء العاقبة والخزي والخسران لهم في الدنيا والآخرة.

فالتعليل أفاد زيادة التقرير لمضمون الجملة الدعائية؛ لأن النفوس أكثر ما تكون استعدادًا عند سماع الأخبار المعللة المقترنة ببيان سببها ودليلها(١) .

كما آثر النظم القرآني التعبير بالإشارة للبعيد في جانب من جعلوا لله أندادًا: (أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)؛ لتحقيرهم، والإشارة إلى بعدهم عن طريق الحق فلا يدرون أين وجهتهم؟! فقد أراد النظم القرآني تقرير الحكم في نفوس المخاطبين بأن هذا جزاء مَن أشركوا بالله وعموا عن رؤية آياته، وعدم استوائهم مع مَن سمعوا وأطاعوا، فهؤلاء على نور من ربهم، وأولئك في تيه وضلال.

وزاد النظم القرآني في تأكيد عدم استواء الفريقين بالتعبير في جانب المؤمن بـــ(على)، وجانب المشرك بـــ(في)، وإيثار النظم القرآني حرف الاستعلاء(على) في جانب المؤمن الموحد؛ للدلالة على قوة بيانه وحجته، فصار كأنه مستعلٍ على جواد يسير به حيث يشاء.

وفي جانب المعاندين عبر بحرف الظرفية: (في)؛ للدلالة على إخفاقهم، وضعف حجتهم، فقد انغمسوا في الضلال والتيه، فلا يدرون أين يذهبون؟ أو ماذا يفعلون؟ لأنهم في ضلال مبين؛ لذا نكر المجرور ونعته؛ للتهويل والتفخيم لمدى انحطاطهم، فهم في ضلال مبين واضح للجميع غير خفي، فالكل سيحاسب علانية وسيساق المجرمين إلى جهنم وردًا، وسوف يذوقون من العذاب ألوانًا، ولن يجدوا ما يقيهم سوء العذاب في هذا اليوم العظيم.

والآية الرابعة جاء الاستفهام فيها في سياق المقابلة بين أهل الإيمان وأهل الكفر في الآخرة، وكان له دور كبير في إبراز التباين الشديد، والمفارقة التامة بين الفريقين: ﴿أَفَمَن

(١) ينظر: وسائل التوكيد، ص ١٥٠٥.

يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾[الزُّمَر: ٢٤]، والآية الكريمة وقعت في سياقها بعد ما قابل الله بين من شرح صدره للإسلام فهو على نور من ربه، وبين من ضاق صدره وقسا قلبه؛ لبيان عاقبة هذا وذاك.

ولما ذكر المولى – عزَّ وجلَّ– في الآية السابقة عقاب من قسا قلبه في الدنيا بأنه في ضلال مبين، أتبعه ببيان عاقبته في الآخرة قال تعالى: (أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ) [الزُّمَر:٢٤]، والهمزة للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف معلوم من السياق، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: «أكل الناس سواء؛ فمن شأنه أن يتقي نفسه ويحفظها بوجهه الذي هو أشرف أعضائه؛ لكون يده التي بها كان يتقي المكاره مغلولة إلى عنقه كمن هو آمن لا يعتريه مكروه ولا يحتاج إلى الاتقاء بوجه من الوجوه؟ فلا يستوي جزاء من قسا قلبه، وضاق صدره مع جزاء من آمن بالله» (١)، وأكد ذلك عن طريق الاستفهام الإنكاري التعجبي؛ لأن ضلاله في الدنيا سبب عذابه في الآخرة، فلا يستوي من غُلَّت يداه إلى عنقه وصار يتقي بوجهه نار جهنم، ومن هو مخلَّد في نعيم الجنة، وأكَّد على هذا المعنى التعبير بالفعل: (يتقي) دون (يدفع)؛لأن (يدفع) فيه إيحاء بالقوة والاختيار، وهم قد سلبوا القوة والاختيار في هذا الموقف المهين، وصيغة المضارع تصوير لهذا الحدث كأنه واقع مشاهد أمام الجميع، فهو يتكلَّف لصون نفسه بدفع العذاب، وكون الاتقاء والتترس بالوجه خاصة؛ دلالة على شدة الاحتراس مما يخاف(٢) ، وهو كناية عن الإهانة والإذلال الذي حلَّ به؛ لأن ذا العقل إن حلَّ بجسده أي ضر يحمي وجهه، ولا يدفع بوجهه الضر، فلهول الموقف طاش عقله، فلا يدري أي اتجاه يسلك؟ وبأي وسيلة يدفع عن نفسه العذاب؟

وذكر النظم القرآني الوجه خاصة دون سائر أعضاء الجسد؛ لأنه أشرف الأعضاء

(١) الكشاف، ٤/ ١٢٥، وروح المعاني، ١٢/ ٢٤٩، وحدائق الروح والريحان، ٢٤/ ٥٣٨.

(٢) ينظر: الفروق اللغوية، ص ٢٤٣.

الظاهرة؛ ولما فيه من دلالة على شدة العذاب؛ ومدى الإهانة والسخرية به، فقد صار الوجه الذي يُهتم به؛ لظهور سمات الجمال عليه يُتَّقى به، ويُتخذ ترسًا؛ لدفع العذاب؛ لأن يده مغلولة إلى عنقه، كما أن الوجه به جميع الحواس (البصر، والسمع، والشم، والذوق، واللمس)، فهو يبصر العذاب، ويسمع لهب النار التي تأكل الأجساد، كما تأكل نار الدنيا الحطب، ويشم رائحة الجلود النتنة التي تحترق، ويتذوق الزقوم ويشرب الحميم، ويلمس فيمسك بالنار، فهي صورة تنبض بالحركة، حركة على غير هدى، فهو يسحب في النار على وجهه بعد أن كانت علامات الوسامة والكِبر تعلو هذا الوجه في الدنيا.

وفي إضافة الصفة إلى الموصوف:(سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ)؛ مبالغة في وصف العذاب حتى كأن الصفة هي عين الموصوف، وفي وصفه بـــ(سُوٓءَ) دليل على بلوغه الشدة والفظاعة في الإيلام، فالنار تغشاهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم.

وقيد الفعل بالظرف: (يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ)؛ للتأكيد على أن عقابه بالضلال كان في الأولى، أمَّا الآخرة ففيها العاقبة الوخيمة التي يؤول إليها بعد البعث.

ولما أراد المولى -عزَّ وجلَّ- التسجيل عليهم بوقوع الظلم آثر النظم القرآني التعبير بالماضي:(قِيلَ) الذي لم يُسم فاعله، من وضع الماضي في موضع المستقبل؛ للدلالة على تحقق الوقوع، وفي بنائه لما لم يسم فاعله؛ تهويل للقول، وإهانة لهم، وعدم مبالاة بأمرهم، فـ«القول هنا؛ للتشفي المنبئ عن كمال الغيظ والغضب».(١)

ولم يذكر النظم القرآني الفاعل، وهم خزنة النار؛ لتهويل القول وتفخيمه؛ تعجيلاً بذكر ما يسوؤهم في هذا الموقف المهيب؛ إذ الغرض يتعلق بالاهتمام بذكر مساءتهم، وتصوير حقارتهم وهوانهم، دون التفات إلى ذكر القائل من هو؟

(١) روح المعاني،٢/ ٣٥٣.

ووضع المظهر: (لِلظَّٰلِمِينَ) موضع المضمر (لهم)؛ تشنيعًا عليهم، وتقبيحًا لفعلهم، وبيانًا لسبب عذابهم، وتنبيهًا على استحقاقهم ما سيحل بهم، وزيادة في تقرير مضمون الاستفهام؛ لذا لن يستطيعوا دفع العذاب عن أنفسهم؛ لأنه سجَّل عليهم ظلمهم [1].

وناسب التعبير بالأمر: (ذُوقُواْ) اتخاذ الوجه ترسًا يدفع به عن نفسه العذاب؛ لأن الذوق يكون بالفم، وهو جزء من الوجه؛ لإفادة التهكم والسخرية منهم، والإهانة لهم، فهو استعارة عنادية تهكمية، فقد استعير الذوق للإيلام، وفي التعبير بالذوق؛ مبالغة في إلحاق العقوبة بهم؛ لذا ورد في حق من يعذب، فالإذاقة دليل على شدة ما تقوم به ملائكة العذاب تجاه الظالمين المعاندين، مع تصوير نهايتهم وسوء عاقبتهم، وفي أثناء توقيع العقوبة تقوم الخزنة بتقريعهم بقولهم: (ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكۡسِبُونَ)، فأفادت العبارة التقريع والتوبيخ والتبكيت؛ «لأن إحساس الذوق باللسان أشد من إحساس ظاهر الجلد، فما ذاقوه كان جزاءً لما اكتسبوه في الدنيا».[2]

وأكد النظم القرآني على تهويل العذاب حين عبر بالاسم الموصول: (ما)؛ فالإبهام والغموض نادى على هول العذاب، فهو عذاب غير معلوم لمن ظلموا أنفسهم؛ لأنهم استجلبوه لها، وقدّموا الضر لأنفسهم، فقد كانوا يظنون أنهم يحوزون نفعًا وأن ما يكسبون خيرًا لهم؛ فدلالة الفعل: (كسب)؛ توضح أنه فعل يعود على صاحبه بالنفع أو الضر[3]؛ لأنه مخير في اتخاذ القرار، وإيثار فعل المستقبل: (تَكۡسِبُونَ) دون المضي: (كسبتم)؛ دليل كاف على أن أعمالهم في الدنيا معروضة عليهم يرونها بجميع تفاصيلها ودقائقها.

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، ٥/ ٤١، وينظر: تفسير أبو السعود، ٧/ ٢٥٢.

(٢) التحرير والتنوير، بتصرف ٢٣/ ٣٩٤.

(٣) ينظر: الفروق اللغوية ، ص ٤٥٣، مختار الصحاح، لزين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (ت: ٦٦٦هـ)، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، ص ٢٦٩، المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م..

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنَّا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وبعد المعايشة لسورة الزمر، وما فيها من وعد، ووعيد؛ للتأكيد على وجوب الإخلاص والتوحيد لذي العرش المجيد، تأتي خاتمة البحث التي تشتمل على أهم النتائج، وهي كالآتي:

١- يحمل الأسلوب الاستفهامي في طياته قوة حجاجية خاصة في الأحوال التي يراد بها إثبات حقيقة العقائد؛ لقدرته على الإلهام والإثارة وتحريك النفس؛ لمعرفة الجواب.

٢- يعد الاستفهام أداة من أدوات التواصل؛ لإفادته تقويم سلوك هؤلاء المخاطبين؛ لجعلهم يفكرون؛ هل هم على صواب أو خطأ؟

٣- كان للاستفهام أهمية في الإخبار عن قضية التوحيد؛ لأن الخبر إذا أتى عن طريق الاستفهام استقر وسكن في النفوس؛ مما يجعله ذا أثر عظيم؛ فالاستفهام يجعل للمخاطب دورًا فيما يعرض من قضايا؛ لأن عدم تصريح المتكلم بالخبر يؤكد على أهميته .

٤-تعد أدوات الاستفهام في هذه السورة الكريمة كالعروة الوثقى؛ لربطها أول السورة بآخرها، فموضوعها واحد، وقضيتها واحدة؛ نزلت من أجل الدعوة إلى وحدانية الخالق ﷻ ، فالاستفهام من الأساليب الحجاجية المهمة؛ لكونه وسيلة اتصال قوية تربط بين محاور السورة الكريمة؛ للتأكيد على الغرض العام لها.

٥- عمد النظم القرآني إلى المغايرة بين أدوات الاستفهام؛ كي يبعث الشوق في نفوس المخاطبين؛ لحملهم على التركيز والانتباه؛ لإيقاظ قلوبهم وجذبها نحو قضية التوحيد والإخلاص.

٦- جاء الاستفهام في كثير من مواضعه من السورة الكريمة للإنكار المشوب بتوبيخ وتقريع؛ لتنديم المشركين على سوء اختيارهم بعنادهم، ومكابرتهم ووقوفهم في طريق

الحق؛ لجهلهم، فقد فات الأوان ووجب حلول العذاب وإنزاله بهم؛ لأن أفعالهم المشينة كانت سببًا في ذلك، ولعلهم ينتبهون فيتفكروا ويرتدعوا.

٧- اعتمد أسلوب الاستفهام على أسلوب الحوار مع المشركين؛ لإثبات الحجة عليهم باعترافهم بأن الله واحد، وهو المتفرد بالعبودية دون سواه.

٨- عمد النظم القرآني إلى الاستفهام التقريري؛ بهدف حمل المخاطب على التفكر في ملكوت الله والإقرار بأن الله واحد.

ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. الأداء الجمالي في البناء التركيبي من علم المعاني، أ. د/ الوصيف هلال إبراهيم، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٤٣٧ه/ ٢٠١٦م.

٢. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت ٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت .

٣. الأساليب الإنشائية وأسراها البلاغية في القرآن، د/ صباح دراز ، مطبعة الأمانة، ١٤٠٦ه/ ١٩٨٦م.

٤. أساليب بلاغية، الفصاحة - البلاغة – المعاني، لأحمد مطلوب أحمد الناصري الصيادي الرفاعي، وكالة المطبوعات – الكويت، الطبعة: الأولى، ١٩٨٠ م،

٥. أسباب نزول القرآن،: لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت ٤٦٨هـ)، المحقق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح – الدمام، الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

٦. أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، د/ حسن طبل، د – ط–ت..

٧. إعراب القرآن وبيانه، لمحيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (ت : ١٤٠٣هـ)، دار الإرشاد للشئون الجامعية - حمص - سورية ، (دار اليمامة - دمشق - بيروت)، (دار ابن كثير - دمشق - بيروت)، الطبعة : الرابعة ، ١٤١٥ هـ.

٨. الأمثال من الكتاب والسنة، لمحمد بن علي، الحكيم الترمذي (ت: نحو ٣٢٠هـ) تحقيق: د. السيد الجميلي، دار ابن زيدون / دار أسامة - بيروت – دمشق.

٩. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ.

١٠. الإيضاح في علوم البلاغة، لمحمد بن عبد الرحمن بن عمر، جلال الدين القزويني، الشافعي، (ت : ٧٣٩) تحقيق: محمد عبدالمنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت.

١١. البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ.

١٢. البرهان في تناسب سور القرآن، لأحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، (ت: ٧٠٨هـ)، تحقيق: محمد شعباني، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ المغرب، ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠ م.

١٣. بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، تأليف: عبد المتعال الصعيدي (ت: ١٣٩١هـ)، مكتبة الآداب، الطبعة: السابعة عشر: ١٤٢٦هـ–٢٠٠٥م.

١٤. البلاغة العربية، لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (ت: ١٤٢٥هـ)، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م.

١٥. التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد: لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت : ١٣٩٣هـ) ، الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤ هـ.

١٦. التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم د/ عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، الطبعة: الثالثة، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

١٧. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، لوهبة الزحيلي، دار الفكر (دمشق – سورية)، دار الفكر المعاصر (بيروت – لبنان)، الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ – ١٩٩١ م.

١٨. التكرير بين المثير والتأثير، د/ عز الدين علي السيد، عالم الكتب، الطبعة: الثانية ١٤٠٧ه/ ١٩٨٦م.

١٩. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت: ١٣٧٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٢٠. جامع البيان في تأويل القرآن، لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، الطبري (ت: ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م،

٢١. الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.

٢٢. الجنى الداني في حروف المعاني، لأبي محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي المصري المالكي (ت: ٧٤٩هـ)، تحقيق: د فخر الدين قباوة / أ- محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.

٢٣. الجواهر الحسان في تفسير القرآن، لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (ت: ٨٧٥هـ)، تحقيق: الشيخ محمد علي معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨هـ.

٢٤. حاشية الصبان على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك، لأبي العرفان محمد بن علي الصبان الشافعي (ت ١٢٠٦هـ)، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى ١٤١٧ هـ-١٩٩٧م.

٢٥. حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، للشيخ العلامة محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الشافعي، إشراف ومراجعة: د/ هاشم محمد علي بن حسين مهدي، دار طوق النجاة، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م .

٢٦. الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت ٣٩٢هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: الرابعة .

٢٧. خصائص التراكيب، دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني أ.د/ محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، الطبعة: السابعة.

٢٨. دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر في التشبيه والتمثيل، والتديم والتأخير، تأليف أ. د/ عبدالهادي العدل، ضبها أ. د/ عبدالسلام سرحان، دار الفكر الحديث للطبع والنشر، د- ط، ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م.

٢٩. دلائل الإعجاز، لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني (ت: ٤٧١هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٣٠. دلالات التراكيب، أ. د / محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، الطبعة: الرابعة ، ١٤٢٩ه، ٢٠٠٨م .

٣١. روح البيان، لإسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، (ت ١١٢٧هـ)، دار الفكر – بيروت.

٣٢. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت: ١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ.

٣٣. الزمر- محمد وعلاقتهما بآل حم، دراسة في أسرار البيان، أ. د/ محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة،١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

٣٤. سنن الترمذي، لمحمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، (ت: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم

عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر الطبعة: الثانية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

٣٥. السنن الصغرى للنسائي، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (ت: ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح، مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م .

٣٦. شرح المفصل، ليعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا محمد بن علي، موفق الدين الأسدي الموصلي، المعروف بابن يعيش وبابن الصانع (ت ٦٤٣هـ)، قدم له: الدكتور/ إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م .

٣٧. الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (ت ٣٩٥هـ)، محمد علي بيضون، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ-/ ١٩٩٧م.

٣٨. صحيح مسلم المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم- لمسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٣٩. عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، لأحمد بن علي بن عبد الكافي، بهاء الدين السبكي (ت: ٧٧٣ هـ)، تحقيق: د/ عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣م.

٤٠. علم البديع، لعبد العزيز عتيق (ت: ١٣٩٦ هـ)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، د- ت- ط.

٤١. علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني، د بسيوني فيود، مؤسسة المختار، ط٣، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

٤٢. غرائب التفسير وعجائب التأويل، لمحمود بن حمزة بن نصر، برهان الدين الكرماني، ويعرف بتاج القراء (ت: نحو ٥٠٥هـ)، دار القبلة للثقافة الإسلامية - جدة، مؤسسة علوم القرآن – بيروت، والمنهاج الواضح للبلاغة، لحامد عونى، المكتبة الأزهرية للتراث، الطبعة: د–ت.

٤٣. فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩

٤٤. فتحُ البيان في مقاصد القرآن، لأبي الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي (ت: ١٣٠٧هـ)، عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه: عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا – بَيروت، عام: ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

٤٥. فتح القدير، لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت: ١٢٥٠هـ) دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ.

٤٦. الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري (ت: نحو ٣٩٥هـ)، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر.

٤٧. الفصل والوصل، د/ صباح دراز، مطبعة الأمانة، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.

٤٨. الكتاب، لعمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، الملقب سيبويه (ت ١٨٠هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

٤٩. الكشاف عن حقائق التنزيل، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ.

٥٠. لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن على، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت: ٧١١هـ)، دار صادر – بيروت الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ.

٥١. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ.

٥٢. مختار الصحاح، لزين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (ت: ٦٦٦هـ)، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت – صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

٥٣. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي بن (سلطان) محمد، نور الدين الملا الهروي القاري (ت: ١٠١٤هـ)، دار الفكر، بيروت - لبنان الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٥٤. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، لأحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي (ت: نحو ٧٧٠هـ)، المكتبة العلمية – بيروت .

٥٥. معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، لمحيي السنة، لأبي محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت : ٥١٠هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي –بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ

٥٦. مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي(ت: ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ.

٥٧. مفتاح العلوم، ليوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي (ت ٦٢٦هـ)، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

٥٨. مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (ت: ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٥٩. المقتضب، لمحمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالى الأزدي، المعروف بالمبرد (ت ٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب. – بيروت.

٦٠. المنهاج الواضح للبلاغة، لحامد عونى، المكتبة الأزهرية للتراث، الطبعة: د- ت.

٦١. مواقع الجملة المنفية في معلقة امرئ القيس وأثرها في تعميق الدلالة البلاغية وإثرائها، أ.د/ السيد أحمد موسى، بحث مستل من مجلة كلية اللغة العربية بإيتاي البارود العدد ٣٥، ١٤٤٣هـ/ ٢٠٢٢م.

٦٢. الموسوعة القرآنية، خصائص السور، لجعفر شرف الدين، تحقيق: عبد العزيز بن عثمان التويجزي، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٠ هـ.

٦٣. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لإبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت: ٨٨٥هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٦٤. همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية – مصر.

٦٥. وسائل التوكيد في القصص النبوي عن بني إسرائيل» دراسة في مقامات الكلام وأسراره» أ. د/ السيد أحمد أحمد موسى، بحث مستل من مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق، المجلد٣، العدد/ ٣٩، عام ٢٠١٩م.

٦٦. وظيفة الصورة الفنية في القرآن، لعبد السلام أحمد الراغب، فصلت للدراسات والترجمة والنشر– حلب، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١ م.